

مصطفى محمود
المستحيل
دار المعارف

المستحيل

مصطفى محمود

المستحيل

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل..

والبيت خال.. زوجتى عند أمها.. وأنا جالس وحدى.. أنصت إلى صوت تنفسى البطىء فيخيل إلى أنه صوت رجل آخر غريب لا أعرفه.. ويدهمنى شعور ثقيل مر بالغربة..

هذا أول يوم أجلس فيه مع نفسى.. وأنظر وجهاً لوجه فى حياتى وأتأملها..

أى حياة!!

إنى لم أعش أبداً..

ليس فى حياتى يوم واحد أستطيع أن أقول إنه كان يومى..

إنى لا أعيش.. ولكنى أتدحرج كحصاة كبيرة ثقيلة.. تسوقنى الوظيفة إلى المكتب.. ويجرنى الزواج إلى البيت.. ويدفعنى الملل إلى المقهى.. ويلقى بى الجوع إلى مائدة الطعام.. ويقهرنى الغيظ

على التدخين.. ويلقى بى التعب إلى الفراش.

خمس وعشرون عاماً مرت من عمرى كأنها لا شىء.. ازددت فى الوزن.. فى الطول.. فى العرض.. ولكنى لم أزدد فى الحياة.

سنة بعد سنة وأنا أغوص فى أرض رخوة من الأوامر والواجبات والكلمات الغريبة..

الواجب.. الأصول.. تقاليد العائلة تحتم.. مركز والدك لا يسمح.. سنك لا يليق فيه كذا.. كرامتك.. ماذا يقول الناس.. كيف تكون نظرة المجتمع إلينا.. الاحترام.. الوقار يا أخى..

حتى الجاكتة التى ألبسها كانت مسكينة مثلى بلا شخصية تطول وتقصر وتتسع حسب الموضة.. لا بإرادتى.. ولا بإرادة الترزى.. ولكن بإرادة التقاليد..

فى وقت ما كنت أمسك فى يدى منشة.. وفى وقت آخر كنت أمسك عصاً.. وفى وقت ثالث كنت ألبس طربوشاً.

والآن تضع لى زوجتى منديلا فى كمى.. وتحرم على لبس الطربوش.. كل هذه الأشياء كانت فى الحقيقة تلبسنى ولا ألبسها.

والحياة كلها كانت تلبسنى.. وحركاتى تلبسنى.. وأنا أتضاءل سنة بعد سنة تحت الردم.. تحت ركام من كلمات كبيرة لزجة.

أذكر هذا الآن وأنا أتلفت حولى فى حياتى.. فى الغرفات الخمس التى أسكنها.

إنها غرفات غريبة.. ضيقة.. وسقفها منخفض.. وكل منها توصل إلى الأخرى.. وهذا ليس ذوقى.. فأنا أحب الغرفات الواسعة ذات السقف العالى التى تفصلها الممرات والصالات.

وهى غرفات تضربها الشمس من اليمين والشمال.. وأنا أحب الغرفات الرطبة الظليلة.

إن البيت لا يبدو كأنه بيتى.. لقد اختاره والدى.. اختار المكان والأرض.. وبنى البيت حسب إرادته.. وفصله حسب ذوقه.. واختار الأثاث قطعة قطعة.. حتى الصورة الكبيرة.. النسخة المنقولة عن صورة الجيوكندا لدافنشى.. هو الذى اشتراها بنفسه وأهداها لى بمناسبة زواجى ووضعها فى الصالون وقال إنها مثال للذوق الرفيع فى الفن.

وشعرت من البداية أنها صورة سخيفة قاتمة.. وأن دمها ثقيل.. ولكنى لم أتكلم.. لأنى رأيت من الواجب أن أكون مؤدباً.. وأن أجامل والدى فى هديته وأمتدح ذوقه.. فقلت له: نعم.. أنت على حق إنها رائعة.

وقال فى زهو العارفين:

- انظر إلى اليدين جيدًا..

ونظرت إلى اليدين جيدًا.. فلم ألحظ شيئًا.. وقال فى انتصار:

- إنهما تبتسمان.. انظر.. هذا هو الإعجاز فى اللوحة.. إن الرسام رسم اليدين تبتسمان..

إن فى اللوحة كلها ابتسامة غير منظورة لقد كان الرسام يجلب معه كل يوم فرقة من العازفين لتعزف للجيوكندا، وهو يرسمها ليدخل فى قلبها السعادة فتبتسم.. وأنت تحس بالموسيقى.. وتسمعها وأنت ترى اليدين فى وضعهما الجميل الباسم.

وأكبرت فى والدى هذا الإحساس المرهف.. وإن كنت لم ألحظ أنا أى شىء غير عادى فى الصورة.. وظللت أعيد على كل ضيف يزورنا هذه القصيدة.. عن الابتسامة غير المنظورة، والموسيقى.. والإعجاز فيهز رأسه تماماً كما هززتها ويقول فى آلية! يا سلام.. حقاً إنها رائعة.. واليدان تبتسمان.. تماماً.. يا سلام..

ويروح بدوره يحكى القصة لصديق آخر.

وظللت على إكبارى لوالدى.. وذوقه.. ونظرته العميقة الناقدة حتى قرأت مصادفة.. وفى مجلة قديمة.. كل هذا الكلام بالنص.. عن الابتسامة غير المنظورة والموسيقى فى اليدين.. والإعجاز.. إلخ. إلخ. ولا أدرى لماذا أحسست فى تلك اللحظة أن الحكاية كلها كلام فارغ متوارث روته الصحف وتناقله القراء.. كل قارئ يردده على أنه رأيه الخاص وذوقه.

وظللت من يومها اشعر بالغيظ كلما رأيت الصورة مدلاة من الجدار فى غرفة الصالون.. وأشعر أنى لم أقل رأيى أبداً فيها.. وأنى عشت أردد كلمات غريبة عنها طول عمرى.

وكان من عادة أبى أن يزورنا كل يوم جمعة ليطمئن على.. هكذا كان يقول.. ولكنى أعتقد الآن أنه كان يفعل هذا ليطمئن على نفسه ليري أن أوامره مازالت نافذة.. وملاحظاته معمول بها، الدواليب مغلقة بالمفاتيح، والمفرش المشمع موضوع على مائدة الطعام.. وأصيص النعناع فى البلكون.. والنوافذ كلها مفتوحة لتدخل الشمس.. وأول شىء ينظر إليه عند دخوله هى النوافذ.. فإذا رأى الشيش مغلقاً فتحه على مصراعيه وهو يصيح:

– الشمس يا بنى الشمس.. هذه شمس لا مثيل لها فى الدنيا.. إنها أحسن دواء للروماتزم.. افتح الشباك عندك.. أنا قلت ألف مرة افتحوا كل الشبابيك..

ويتمدد فى الشمس يطرقع مفاصله..

وأبى كان دائما يشكو من الروماتزم.. ولهذا كان يفتح الشبابيك فى بيوت أولاده.. فى كل وقت.. وفى كل فصل من فصول السنة.. ولو استطاع لسقانا فنجاناً من السلسلات ثلاث مرات فى اليوم كما كان يفعل.

ولم يكن يجدى أن نحتج ونقول إننا أصحاء.. وإننا لسنا مرضى بالروماتزم.. فمعنى أن يكون أبى مريضاً بالروماتزم.. أن

نكون جميعاً مرضى بالروماتزم.. فأبى مفتش تركى فيه كل أخلاق الأتراك ودماغهم الناشف.. وغرامهم بالأمر والنهى.

وكان يعاملنا نحن أولاده كأننا تكية.. ويعيش حياته ويعيش لنا حياتنا أيضاً.

لم يحس واحد منا فى أية لحظة بأن له كياناً مستقلا.

أذكر حينما كنا صغاراً أن أبى كان يحب الشاى فكنت أشرب معه الشاى.. وحينما تقدمت به السن ومرض بالضغط وحرم عليه الطبيب شرب الشاى.. أصبحت أشرب الينسون.. لأنه أصبح يشرب الينسون.

وظل سلطانه يحلق فوق رأسى حتى بعد أن جاوزت سن التلمذة، وتخرجت من المدارس لأعيش بإيرادى الخاص.

كنت أستشيره من تلقاء نفسى كلما وقعت فى مشكلة.. كان الخوف مازال فى دمى.. الخوف من الدنيا.. ومن المرأة.. ومن أن أحسم أمراً بإرادتى.. وبدون مشورته..

كان قلبى تأكله الرغبات من الداخل، ولكنى لم أكن أجرؤ على التفكير فيها وإشباعها.. وإنما كنت أتردد وأخاف وأجزع، ثم أكتفى بأن أتمنى ثم أهرب من المشكلة كلها، وألوذ بوالدى أطلب نصيحته.. وأترك له حياتى يبت فيها ويختار كما يشاء كأنه الله أو القدر.

وهكذا ظلت حياتى معطلة طوال هذه السنين.. وظللت أعيش طفلا كبيراً.. يملأ قلبى الخوف والاحترام والرهبة..

ولو سألتنى إن كنت أحب أمينة زوجتى.. لما وجدت جواباً.. فأنا لم أحبها، ولم أكرهها.. ولم أخترها.. وإنما هى كصوَرة الجيوكندا وضعها والدى فى بيتى.. وقال إنها جميلة ورائعة.. فقلت خلفه كالطفل جميلة حقًا، ورائعة، واحتضنتها كما أحتضن كل كلمة يقولها أبى.

ولكن بقدر الراحة التى كنت أحسها فى هذا الحب إلا أنى كنت أحس أنه ليس حبى أنا.. وإنما هو حب أبى وذوقه واختياره..

كان كل شىء حولى لا يمت لى.. كان كل شىء غريباً عنى.. حتى ملابسى، حتى أفعالى.. حتى أقوالى كانت غريبة عنى.

ولكنى لم أكن أدرك مشاعرى بهذا الوضوح فى البداية.. لم تكن فى ذهنى فكرة واضحة عن شىء..

كنت أعيش فى فتور وآلية، وبلادة، واستسلام.. حتى مات أبى فجأة..

وأفقت لأجد نفسى وحدى.. بدون سند إلى جوارى.. بدون قدر.. بدون إله.. بدون حب.. بدون مبرر لأى فعل أفعله سوى إرادتى.

وأين هى إرادتى ؟!

لقد كنت أتردد ثلاثة أيام متتالية فى توقيع شيك، وأنظر فوق كتفى بين لحظة وأخرى.. أنتظر أن يظهر والدى فجأة لأسأله.. هل من الصواب أو الخطأ.. توقيع هذا الشيك؟

ولم يكن هناك حل..

كان لابد لى أن أحمل أعبائى بدون معونة أحد.

وكان هذا يسبب لى قلقاً حادا قاسياً يحرمنى النوم.

لقد بلغ ميراثى وحدى من تركة أبى مائة فدان، غير العقارات والأملاك وسندات البنوك.. وهى ثروة كبيرة فوجئت بها.

وكان معنى هذه الثروة أن أذهب فى عشرات المشاوير كل يوم، إلى البنك، وإلى البلد، وإلى البورصة.

وفى كل مشوار من هذه المشاوير أقابل ناساً لا أعرفهم.. أناقشهم وأوقع على أوراق، وأمضى على عقود، وأبدأ صفقات وأنهى صفقات.

وفى كل لحظة من هذه اللحظات أشعر أنى وحيد، متردد خائف.

وأعود من البنك مبلبل الذهن.. فى ظنى أنى قد نسيت شيئاً.. وقعت فى خطأ ما، أو تورطت فى إجراء غير قانونى.

ولكن بمرور الأيام بدأت أكتشف أن المال فى البنوك

والإدارات المالية يحفظ نفسه بنفسه، وإنى لست فى حاجة إلى ذكاء كبير لأضاعف أموالى.. فالأموال تتضاعف من تلقاء نفسها فى العقارات والأراضى والبنوك.. وما على إلا أن أذهب أول السنة لأجمع الأرباح وأوقع فى دفتر، وبدأ الخوف يزايلنى..

وبدأ ذهنى ينصرف إلى أفكار أخرى..

أفكار لا علاقة لها بالأرض، والبنك، والمرحوم والدى.. أفكار لها علاقة بى.. أنا..!!

وحينما أحضرت لى زوجتى كوب الشاى منذ أيام.. وقلت لها:

- أنا لا أحب الشاى..

نظرت إلى فى دهشة واستفهام.. فهى لم تتعود منى أن أقول: أنا لا أحب..

تعودت أمينة أن آكل ما تقدمه، وأشرب كل ما تقدمه.. ولكنى قلتها..

قلت.. أنا لا أحب.. وأنا أشعر بدهشة أنا أيضاً.. لأنى أقول ما فى نفسى لأول مرة بدون أن ألقى بالا لأحد..

واكتشفت فى ذلك اليوم عندما دخلت غرفتى وجلست على مكتبى.. إنى لا أرفض الشاى وحده.. ولكنى أرفض معه أشياء أخرى كثيرة..

أرفض بيتى وحياتى، وأتمنى أن أصرخ فجأة.. لأقول لزوجتى

أنا لا أحبك. وأقول عن حياتى إنها سخيفة.. وأنزع الصورة المدلاة من الجدار.. وألقى بها فى الشارع..

ولكنى لم أجد الجرأة على أن أقول كل هذا..

واكتفيت أن أرفض الشاى فى عصبية، وأزيحه من أمامى.. ثم أشعل سيجارة..

وعادت حياتى فجأة أمامى.. كشريط سريع.. حياة سخيفة مثل لحية مستعارة.. ليس فيها ملامحى.. ليس فيها.. أنا..

وشعرت بشهوة الطفل فى تحطيم أى شىء.. والجرى إلى الخلاء.. إلى الهواء الطلق.. والعربدة.. والضحك.. والبكاء.

شهوة ملحة فى أن أبسط أجنحتى التى كانت مضمومة طوال هذه السنين.. وأحلق بها كالطائر..

وتدفقت أيامى كلها.. تطالب بحقها فى أن تعيش من جديد.. طفولتى.. صباى.. شبابى..

ثم عاودنى الجبن.. وتيقظ خوفى القديم.. وأمسك بعقالى.

وسكت على مضض.. وأنا ألوك فى فمى آلاف الكلمات..

ولكنى أحسست أنى تغيرت.. وأصبحت شخصاً آخر غير حلمى القديم..

عرفت لذة التمرد..

وظل هذا الإحساس يلازمنى.. وأنا أدخل إلى البورصة..

والسيجارة ما زالت فى فمى.. وعيناى تقرءان الكلمات المكتوبة على السبورة فى الدور العلوى..

حركة الأسعار.. نوع الأوراق المالية.. أسعار الفتح.. أسعار الإقفال..

وأذنى تلتقط صيحات السماسرة حادة مختلطة.. سيجورات ٨٤٢ سيلوس.. سيلوس.. التعدين ٤٠٠ بايع.. بايع..

المناجم ١٢٨.. الملح.. الملح.. شارى.

أسمنت طره ٩٧٠، ماتكسا.. ماتكسا.. بايع.

والأيدى تلوح.. وتشتبك.

والأصوات الحادة ترن فى أذنى كأصوات القطط.. وهى تتعاوى على صفيحة قمامة.. وعيونها تشع ضوءاً أخضر مخيفاً.. ناو.. ناو.. لو.. غو.. غو..

ورأس الخواجة مترى التاجر العجوز ووجهه الأبرص المرقط بالبياض يذكرنى بوجه قطتنا.. جيجى..

وانتقلت عيناى فى آلية لتقرأ على لوحة أخرى.. كنتراتات أقطان طويلة التيلة.. فولى جود..

وسمعت الخواجة مترى يتحدث ويلوح بيده.

- يا حبيبى الدنيا هنا مجازفة.. اللى عاوز يكسب لازم يجازف.. يرمى نفسه.. اللى يخاف هنا يموت..

ووقفت خائفاً فى ركن أطلب نصيحة الخواجة مترى قبل أن أبيع أوراقى..

وأشار على بصفقة صغيرة..

وأمسكت بقلمى لأوقع الإذن.. وأحسست برعشة التحدى تنتقل إلى بالعدوى من الجو المكهرب حولى.

كان كل واحد يتنمر.. ويتلمظ على المكسب..

وأخذت أنا الآخر.. أتلمظ.. وأتنمر.. وأتنمر.. وأتتبع أسعار أسهمى وهى ترتفع.. وتقفز من رقم إلى رقم على التابلوه.. وأتتبع الطباشيرة وهى تكتب ١١٢ - ١١٤ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٣ ثم تتوقف ويصرخ السمسار بأعلى صوته ١٢٣ - ١٢٣

وترددت.. لا من الخوف.. ولكن من الطمع.

لقد ارتفع السعر ١١ بنطا فى يوم واحد.. فما بالى لو انتظرت يومين آخرين..

وشعرت بطمعى يتغلب على خوفى.. وشعرت بإحساس الطفل الذى تزوغ عيناه أمام دكان الحلوى..

وغمزنى الخواجة مترى لكى أبيع.. ولكنى لم أبع..

وحينما خرجت فى ذلك اليوم.. كنت أشعر بشىء جديد غامض يدخل حياتى.. كنت أحس بنبض الحماس والجرأة يتسلل إلى عروقى.. وكنت أشعر بحياتى القديمة تسقط عنى شيئاً فشيئاً كالرداء.. وتبدو غريبة..

زوجتى.. بيتى.. فنجان الشاى الذى أرشفه على الفطور.. أصوات الشارع الأليفة وهى تعلو فى الصباح تحت نافذتى.. همهمة أم حسن خادمتنا العجوز على سبحتها.. ودعاؤها لى بطول العمر..

كل هذا كان يبدو لى فى تلك اللحظة كحلم غريب غير حقيقى.

لقد تغيرت.

كان هذا الإحساس يسعدنى.. وكنت أحتفل به فى قلبى..

* * *

وحينما خرجت من السينما فى الثانية عشرة لم أشعر برغبة فى العودة إلى البيت..

ورأيت قدمى تسعيان على غير عادتى إلى ملهى ليلى..

ودخلت فى وقت كانت الراقصة فيه تلقى بشالها.. وتتمايل.. وتتأود.. وتنام على ظهرها.. وعازف الطبلة يقفز حولها كالقرد..

ولفت نظرى أن كرسى عازف الطبلة عليه شلتة ولا أدرى لماذا خطر لى أن عنده بواسير؟

وضحكت طويلا لهذا الخاطر السكران..

ولم أكن قد ذقت قطرة خمر.. ومع هذا كنت أشعر أن رأسى مشعشعة خفيفة.. وكنت أرى سبباً للضحك فى كل شىء حولى..

وبدت لى حركات الطبلى مثيرة للضحك.. وكان كلما مد يده خلفه ضحكت..

وحينما تركت الملهى فى ساعة متأخرة من الليل فضلت أن أعود إلى بيتى ماشيًا..

وكنت أجد للهواء طعماً لذيذاً فى رئتى.. وكنت أستنشقه فى بطء.. ويداى فى جيب بنطلونى.. وفمى يصفر أغنية شعبية.

وكان كل واحد يمر بى.. يبتسم.

وحينما فتحت باب شقتى فوجئت بزوجتى تقف أمامى شاحبة حمراء العينين قلقة.. تهتف فى صوت خائف:

- أين كنت طول الليل؟

وتذكرت فجأة أن الساعة الثالثة صباحاً.. وأن هذه هى المرة الأولى التى أسهر فيها إلى هذه الساعة المتأخرة..

ومسحت على وجهى بيدى.. وأنا أفيق.. وأعود شيئاً فشيئاً إلى نفسى القديمة..

وتمتمت بكلام لا أذكره..

وخلعت ثيابى.. وتناولت عشائى وأنا صامت.. لم أكن سعيداً بعودة هذه النفس القديمة.

وبدا لى فى تلك اللحظة أنى هبطت فجأة من السماء إلى الأرض.. وعدت إلى الحياة.. كإنسان ميكانيكى يدور بزمبلك..

وناولتنى زوجتى خطاباً عليه طابع دمشق.. ونظرت فى الخط.. وأنا أتساءل.. من الذى يرسل إلى خطاباً من دمشق.. ووضعته فى جيبى..

وفى الفراش مددت يدى إلى الخطاب وفتحته لأقرأ هذه السطور..

عزيزى حلمى..

لعلك لا تذكرنى الآن وأنت تقرأ التوقيع.. فقد مضى على افتراقنا سنوات طويلة.. ولكنى أذكرك.. وأذكر معك أجمل أيامى.. حينما كنا نلعب أنا وأنت وأختى صافى فى عزبة والدى ونحن صغار.. ونجرى فى دائرة حول النورج.. كل منا يمسك بذيل الآخر.. وأذكر أيام زمالتنا فى المدرسة الابتدائية.. وأيام هروبنا معاً.. حينما كنت تخاف وتعود إلى المدرسة وأمضى أنا وأختى صافى لنقضى اليوم فى حديقة الحيوان..

واليوم جلسنا نتحدث عنك أنا وأختى.. وفكرنا أن نلتقى ثانية.. لنتعرف على ماضينا الحلو.. ونعيد أيامنا الجميلة..

إننا نعيش الآن فى دمشق ولنا أملاك وأراض هنا.. ونحن ندعوك لقضاء شهر فى ضيافتنا.. ولنا أمل كبير فى قبولك هذه الدعوة..

ونحن فى انتظار اليوم الذى تحدده.. وإلى أن نلتقى لك حبنا وأخوتنا.

فؤاد

وشعرت بموجة من السرور.. وأنا أقرأ الخطاب.. وأعدت قراءته وأغمضت عيني..

سوف أذهب إلى دمشق..

وأخلع ردائى كله.. أخلع عنى هذا البيت العتيق بأركانه المظلمة.. وأخلع عنى القاهرة كلها.. وأخلع حياتى.. وعاداتى.. وكلماتى.. التى أقولها كل صباح.. وأعيش..

وشعرت بدغدغة النشوة فى كل جسدى.. ونظرت إلى زوجتى فرأيتها تنظر إلى باستغراب.. وتسألنى عما فى الرسالة..

ولم أجب.. وتناومت.. فأحاطتنى بذراعيها.. ولكنى لم أشعر بالرغبة فيها..

وأحسست بأطرافى تبرد وتتثلج تحت لمستها.. وأدرت لها ظهرى وبدأت أتخيل صافى.. وجهها التركى الأبيض.. وضفيرتها الذهبية.. وعينيها الصافيتين مثل كأسين من عسل النحل.. وذراعها البض مثل عود الخص الطرى.

وتدفقت الرغبة حامية فى عروقى.. وأحسست بلهب الجنس يخرق دماغى.

ولكنى أخفيت هذه الرغبة كأنى أخفى سرًّا.. وضننت بها.. وتركتها تغلى فى دمى.. وتؤرقنى.. مثل سر لذيذ جدا.. وظللت أحلم.

وكانت زوجتى تتحدث.. ولم أكن أسمعها.

كنت أنظر إلى فمها وهو ينفتح وينغلق.. وإلى كتفيها العريضتين.

ودقت ساعة الحائط أربع دقات.. وثقل قلبى فجأة، وعاودنى الخوف وأحسست أنى ضعيف.. وأن الساعة تدق منذ خمس وعشرين سنة.. وأنا فى بيتى لا أبرحه.

وداهمنى شعور بالتردد.. شعور من يمد رجله ليخطو خطوة واسعة فى الظلام.

٢

تيقظت فى الصباح وقد نسيت كل شيء.. وفى اللحظة التى كنت ألبس فيها ثيابى.. كنت أدخل فى عاداتى القديمة فى نفس الوقت.. وكانت زوجتى تمر بالفرشاة على نفس الأماكن من القماش التى تعودت أن تمر عليها كل يوم.. حول الياقة.. وعلى الأكتاف.. وعلى الظهر والأكمام.. وثنية السروال، ثم تنصحنى كعادتها أن آخذ بالى من الطريق وتنظر إلى نفس النظرة الحنون.. وأم حسن تجرى خلفى وفى يدها الحقيبة.. والباب يزوم كعادته دائماً كل صباح ليشكو من رطوبة مفاصله.. وحارس المصعد يرفع يديه الاثنتين لتحيتى.. ويفتح فمه فى بلاهة فتبدو سنته الذهبية.. نفس السنة الذهبية ذات الطربوش المكسور التى اصطبح بها كل يوم.

وجلست فى العربة.. وتصاعدت إلى أنفى رائحة البنزين.. وسمعت صوت الموتور.. ورأيت واجهات المحلات تتحرك فى

الزجاج وتختفى.. ولكن أذنى ظلت تردد جملة واحدة طول الطريق.. جملة قالتها زوجتى وهى تعطينى المنديل.

لا تنس أننا سوف نحتفل اليوم بعيد ميلاد ابننا..

جملة غريبة فى هذا السيل من الحياة العادية..

ظلت ترن فى أذنى طول الطريق.. وأنا أحس أنها جملة ظريفة.. وأتذكر احتفال السنة الماضية.. الذى لم يحضره أحد سواى أنا وزوجتى وأبى.. وكيف كانت زوجتى غاضبة لأنها لم تدع صديقاتها، وأبى غاضب لأنها تناقشه وتريد عزومة الناس.. وماذا وراء عزومة الناس إلا الحسد.. وأنا آكل من التورتة ولا أفكر فى شىء، وابننا يصرخ فى الغرفة..

ولكن الآن أفكر فى أشياء كثيرة.. وأنتظر هذا الاحتفال بشوق.

وكلمات زوجتى ترى فى أذنى كما ترن بشرى العيد فى أذن طفل.. وإحساسى بالنزق يدفعنى إلى الضغط على الكلاكس.. والعبث.. وأنا أسوق.. وأتأرجح يميناً.. ويساراً..

اليوم نحتفل..

أنا أشعر بانبساط..

وتوقفت عند دكان لعب.. واشتريت قرداً بزمبلك يقفز ويصفق بيديه.. واشتريت ورقاً ملوناً.. وصواريخ..

وتوقفت مرة أخرى عند محل ورد..

ثم عدت أستأنف سيرى.. وأسلم نفسى إلى حياتى العادية.. وعلى شفتى ابتسامة..

وفى المساء حينما عدت إلى البيت.. دخلت غرفتى وأنا أصفر.. ثم أغلقت الباب.. وأخرجت القرد وأدرت الزمبلك.. ورحت أتفرج عليه وهو يقفز ويصفق بيديه حتى توقف.. ثم أدرت الزمبلك مرة أخرى.. ورحت أتفرج..

ونسيت أنى قد أحضرت اللعبة لطفلى.. ورحت ألعب بها..

ولكن زوجتى التى تسللت من الباب الموارب وجاءت تستطلع.. ووقفت تتفرج خلفى.. ما لبثت أن هتفت فى دهشة أيقظتنى:

- أنت الذى تلعب.. غير معقول؟

وضحكت وأمعنت فى الضحك..

ومع هذا.. فقد أمسكت هى الأخرى بالقرد.. ثم بدأت تدير الزمبلك.. وتلعب..

ثم قالت فجأة فى مرح:

- إن حفلة اليوم ستكون ظريفة.. لقد دعوت جيراننا.. ودعوت صديقتى فاطمة..

ورفعت رأسى عند ذكر الاسم..

وكنت أسمع منها دائماً حكايات كثيرة عن صديقتها فاطمة المحامية.. ولكنى لم أكن قد رأيتها أبداً.

وكانت كثرة ذكرها أمامى.. ورواية حكاياتها.. قد جعلت لها شخصية فى ذهنى.

وشعرت بسرور خفى..

وعدت أملأ الزمبلك.. وأتفرج على القرد.. وهو يقفز.. ويصفق بيديه..

* * *

لأول مرة كنت أشاهد كرسى الصالون من غير بياضات هذه الليلة.. وقماش الطقم يلمع فى ضوء النجفة الكريستال..

وكنت أتحسس قماش الطقم فى لذة.. وأختلس النظر إلى الضيوف.

كانوا ثلاثة.. جارنا الأستاذ عزيز.. وزوجته نادية.. وفاطمة المحامية..

وكنت أختلس النظر إلى فاطمة وأتتبع حركاتها فى اهتمام.. وأجد من الصعب الآن أن أصف إحساسى بها لأول مرة.

كان إحساسى حينما أمسكت بيدها لأصافحها أنى أمسك بأصابع خالية من العظم.. وبشرة ملساء فيها ملاسة حيوانية كأنها جسم «عرسة».

وكان صوتها المبلل وهو يحادثنى فيه لزوجة تلتصق بالأذن وبالأعصاب.

ولم تكن جميلة.. ولكن جسمها كان فيه بضاضة..

وكان صدرها يكظ من فتحة ثوبها.. وكانت أردافها تضغط على الفستان.. وكانت استدارة كتفها وهى تختفى تحت الحرير الأسود المطرز تثير الخيال والتصور.. وتغريه على تتبع هذا الانسيال.

وكان تكور بطنها تحت الفستان يوحى بأن لحمها ليس فيه ثنية واحدة وأنه مشدود متوتر.. فائر..

وكانت عيناها فيهما بريق.. يومض وينطفئ.. حينما ينعكس عليهما الضوء.. وهى تتلفت..

وكانت فى شخصيتها جرأة واقتحام.. وكانت فى كلماتها مبادرة غير عادية فى النساء.

كانت على عكس زوجتى تماماً..

وكانت زوجتى سعيدة بها جدًّا.. فخورة بشخصيتها وجرأتها.

وكانت تقول وهى مبهورة:

- هذه هى رائدتى. هذه هى القائدة التى كانت تتزعمنا فى المظاهرات وفى الإضرابات.. وكانت خطيبة المدرسة الرسمية.. وكانت رئيسة الإخوات المسلمات.. ورئيسة فرقة التمثيل.. ورئيسة كل حاجة..

- فعلا.. إن مخايل الزعامة تبدو عليها.

كنت أقول هذا وأنظر إليها.. فتبادلنى بنظرة ثابتة وعينين فاحصتين لا تطرفان حتى أنكس بصرى.. فتلاحقنى بكلماتها وصوتها المبلل.. وتبادرنى قائلة فى تحد:

- ما لكم دائماً تصابون بالدوار حينما تسمعون عن امرأة.. تقود وتأمر..

فأقول وأنا أحاول أن أثبت نظرتى فى عينيها:

- لأن المرأة تقود وتأمر فعلا بدون حاجة إلى مظاهرات وإضرابات وخطب.. لأننا نحبها ونسلمها ذقوننا.. فيصبح الرأى رأيها والكلمة كلمتها.

- أنا أرفض هذه القيادة التى أفوز بها لمجرد تنازلكم.. إنه غرور منكم أن توقفوا حياتنا على حبكم.. أنا أيضاً لى غرورى أنا أريد أن أغتصب حقى بيدى.. وآخذه رغما عنك.

- أتسمع الكلام.

وتصفق زوجتى فى سرور وإعجاب.

- أتسمع الكلام.. هذه هى المرأة الجديدة التى سوف تريكم مقامكم..

- إنها لن ترينا مقامنا.. وإنما هى سوف تسعى إلى حتفها بيدها.. سوف تتحول إلى رجل.. وسوف نرحب نحن بأن نصبح

نساء. نجلس فى البيت ونأخذ نفقة ومؤخراً ومقدماً وشبكة وبذلات أنيقة وكرافتات سولكا لأعياد ميلادنا.. إنها ورطة يسرنا أن تقعن فيها. أنا لا أمانع شخصياً فى أن أنام فى البيت وأتنازل لكن عن الشقاء وعرق الجبين..

- أتظن أنه يمكن أن أتحول إلى رجل.. إنى أعمل منذ خمس سنوات.. أتظن أنى أصبحت رجلا.. انظر جيداً.

وترمقنى برمش عينيها فى دلال، ويقهقه الأستاذ عزيز:

- إنك لا تغلبهن يا صاحبى.. اسمع نصيحتى.. إن الطريق الوحيد لتغلب المرأة هى أن تجعلها تحبك.. وحينها تحبك سوف تقتنع بكلامك.. وتكف عن مناقشتك..

- لماذا تصرون على تصويرنا هكذا فى صورة مخلوقات عقولها فى عواطفها.. مخلوقات لا تفهم ولا تعقل.. ولا تحركها إلا نزواتها. أنتم واهمون.. نحن الذين ضحكنا عليكم.. وروجنا هذا الوهم.. وأدخلنا فى ذهنكم أننا مخلوقات عاطفية قليلة الحيلة وأنكم شطار وأقوياء.. ضحكنا عليكم بهذا الكلام الفاضى لنأكل عقلكم ونأخذ ما نريده.. تماماً كما نفعل مع أطفالنا..

وتصفق أمينة وتقف وتجلس فى سرور.

- أتسمعون؟! لقد ضحكنا عليكم كما نضحك على أطفالنا.

ويقهقه الأستاذ عزيز ويمسح على رأسه الأصلع.

- أنتن يا نساء لا تجدن إلا الثرثرة.. إن الله لم يقطع ضلعاً من آدم ويصنع منه حواء.. ولكنه فى الغالب قطع لسانه وصنع منه امرأة.

- وخصوصاً حينما تكون المرأة محامية مثل فاطمة.. إنها لابد أن تكون مخلوقة من لسان ضانى أصلى.

- أنا شخصيا أعتقد أن الله قطع أصبع حواء وصنع منها آدم.. وما زالت المرأة إلى الآن تصنع الرجال بأصبعها.. إنها تشير فى أى مكان إلى الرجل فيتبعها وما يلبث أن يصبح زوجها.. وأنا فى المحكمة أشير بأصبعى وأنا أترافع.. وأنقذ أعناقكم يا رجال من المشانق.. وهكذا بأصبعى فقط.

وتهلل وجه أمينة فى سذاجة.. وهى تحتضن صديقتها..

- أتسمعون.. بأصابعنا.. فقط..

ويقهقه الأستاذ عزيز.

- لا فائدة من مناقشة امرأة.. إنك تلف وتدور، ثم تسلم لها بكل ما تريده.. لأن دمها خفيف.. ولأن لذة إرضائها تفوق لذة الحقيقة.. أنا شخصيا أرفع الراية البيضاء.. وأسلم.

- برافو يا فاطمة كسبنا القضية.

وتضحك فاطمة وتهتف:

- أشكرك.. والآن.. أين مؤخر الأتعاب؟

- لقد أعددنا لك عشاء شهيا..

- رائع.. يا أختى..

* * *

وعلى العشاء كان فى إمكانى أن أراقب الأستاذ عزيز عن كثب.. وأتأمله.. وهو يتكلم.. ويأكل.. ويلوح بيديه..

والأستاذ عزيز قصير القامة، فى الأربعين، رأسه صلعاء فى منتصفها، ولكن الشعر الأبيض والأسود يكسوها من الجانبين.

وهو حينما يتكلم يلعق شفتيه بلسانه من لحظة لأخرى، ثم يزم فمه.. فتبدو شفتاه رفيعتينِ جداً.. وفمه مرسوماً فى صرامة وقسوة.

وهو يتكلم بحدة.. ثم ينفجر فى الضحك من تلقاء نفسه.. ويقهقه بحدة أيضاً.

وطول الوقت كان عزيز لا يرفع بصره عن فاطمة، وكان يخيل إلى أحياناً أنه يأكل منها هى.. ولا يأكل من الطبق.. لأن الطبق كان يفرغ ولا يفطن إليه.. ويظل يحملق أمامه حيث تجلس فاطمة إلى جوارى. ونهداها النافران ينصبان من صدرها فى تكور شهى رجراج.. وكنت أحس وهى إلى جوارى بملمس ذراعها.. وبذلك الشعور الأملس الحيوانى الذى يتسرب إلى من جسمها الطرى الذى يشبه جسم «العرسة».. فأشعر بالخدر وأترك كتفى لاصِقاً بكتفيها ثم أعود فأتيقظ وأنفر بعيداً.. وأنظر

إلى عزيز.. وهو يلعق شفتيه.. ويزم فمه.. ويموء كالقطة وهو يأكل..

وكان الكلام يدور على المائدة عن المحاماة.. والمفارقات التى تلقاها المحامية أثناء العمل..

وكانت زوجتى تتكلم عن قضية الوقف التى رفعناها من سنين.. ولم نصل فيها إلى نتيجة. وتقترح على أن نسلم القضية إلى فاطمة.. لتعالجها بعبقريتها.. وفاطمة تبدى استعدادها.. ثم تنظر إلى ناحيتى وتهمس:

- آخذ فيها ألف جنيه..

- أنا مستعد.. اكسبيها أولا وأنا أعطيك ألف جنيه..

- اتفقنا.. مر على غداً فى المكتب.. لنبدأ فى الإجراءات..

ولا أدرى لماذا أحسست بالخجل فجأة.. كأنى طفل يأخذ ميعاداً غراميا.. وضايقنى إحساسى.. ونظرت إليها فى رهبة من جانب عينى.

وضبطتنى وأنا أنظر إليها خلسة.. وابتسمت.. ثم ضحكت.. وأشرق وجهها بسعادة آثمة.. وغرور.. ضايقنى أكثر وأكثر.

وشعرت بالغيظ وبميل إلى السخرية منها، فقلت وأنا أضغط على كلماتى.. كلمة.. كلمة..

- إن كل أمنيتى الآن أن أعيش حتى يصبح كل القضاء نساء وأشاهد فشل كل المحاميات بعينى.

وضحكت فاطمة وهرش عزيز رأسه.. بينما أردفت أنا في هدوء:

- إننا نحن الرجال الذين نكسب لكن القضايا.. أنتن تصعبن علينا، ولو كنت قاضياً ووقفت أمامى تبكين حظ المتهم حتى بح صوتك، فإنى كنت أعطيك البراءة لمجرد الشفقة.. فأنتن مهما أخذتن الشهادات والدبلومات وارتفع صوتكن بالجعجعة.. ستات.. ولايا..

فأجابت فاطمة فى بساطة:

- حينما يصبح المحامى امرأة والقاضى امرأة فسيكون المتهم رجلا ولن تهمنا القسوة حينذاك لأنها ستقع على دماغكم..

- حينذاك سوف نترك لكن الدنيا.. ونذهب لنعيش فى القمر أو فى أى كوكب آخر.

- حقا!.. أتستطيعون؟

وكانت تنظر إلى وكأنها تقول لى من طرف خفى.. إنك لا تستطيع حتى أن تترك الكرسى بجانبى..

* * *

كنت أدخن بشراهة بعد العشاء.. وأنظر فى الركن حيث توجد زهرية كبيرة قديمة.. والضيوف من خلفى يثرثرون ويضحكون.. وفاطمة تحتضن ابنى وتقبله.. وصوت البيانو يعلو من أقصى

الغرفة.. فأظن أنه الراديو.. لأن البيانو عندنا مجرد قطعة أثاث يغلفها التراب من سنين.. ولا يضرب عليه أحد.. ولكننى فوجئت بمدام عزيز جالسة على كرسى البيانو تعزف..

ودهشت لأنى طول السهرة لم أفطن إلى مدام عزيز.. لم أحس بها.. كانت موجودة معنا طول الوقت.. لكن بدون صوت.. لم تتكلم كلمة واحدة..

وتذكرت أنها كانت تجلس عن يسارى على المائدة طول الوقت.. ولم أنظر إليها..

وكان زوجها عزيز يقف على مقربة.. ينفث الدخان من سيجار ضخم.. وقال لى عندما رآنى، إن زوجته نادية عازفة بيانو ممتازة.

وسمعت زوجتى تهتف:

برافو يا نانى.. هذا عزف رائع..

ورفعت نادية رأسها الصغيرة.. ونظرت إلينا..

كان وجهها رقيقاً صغيراً فيه طفولة، وعيناها السوداوان فيهما قلق وشرود.

وكان يخيل إلى أنها لا ترانا.. وأنها تنظر من خلالنا..

وعادت إلى العزف.. وأخفت رأسها الصغيرة خلف البيانو

أين سمعت هذه المقطوعة؟؟..

واقتربت من البيانو..

وكنت أرى شعرها المتهدل.. وكتفيها المنحدرين وجسمها الضئيل.. ويدها الصغيرة وهى تتنقل بسرعة على مفاتيح البيانو..

وانتهت من العزف.. ورفعت رأسها ببطء.. ودارت ببصرها فينا..

ومرة أخرى شاهدت عينيها السوداوين وذلك القلق المبهم.. والشرود.. والضياع.. الكامن فيهما.

كانت تنظر إلينا كأننا غير موجودين.. وتتكلم فى همس.. كأنها تكلم نفسها.. وتبتسم ابتسامة فيها وجل وتردد.

وقال عزيز:

- إن زوجتى تقرأ كثيراً.. إنها دودة كتب..

واختفى صوته فى ضوضاء البيت.. ورنين ضحكات طفلى وهو يجرى.. وفاطمة تجرى خلفه..

ومرت لحظة صمت.. وسعل عزيز سعلة حادة.. ثم عاد يحاول إشعال سيجاره الذى انطفأ.

* * *

فى تلك الليلة حينما أغمضت عينى لأنام.. حاولت أن أتذكر الوجوه التى شاهدتها فى الحفلة.. وجهاً.. وجهاً.. ولكنى لم أستطع أن أجمع أشتاتها من ذهنى..

كانت صورة فاطمة تلح على خيالى، وتتسلل إلى أعصابى ومعها تنميل يخدرنى كلى..

صوتها المبلل.. وملمسها الناعم الحيوانى.. وصدرها النافر الرجراج.. والبريق المشع فى عينيها.. وشخصيتها الوقحة.. وكلامها الملىء بالاستفزاز.

واكتشفت أنى نسيت تماماً أصدقاء دمشق.. ومشروع دمشق.. وانزلقت من ذهنى كل الرغبات وحل محلها شعور واحد مختلط.. هو فاطمة.. اشتهاء.. ونفور.. وغيظ.. وخوف.. ورغبة فى فاطمة.. رغبة فى إيذائها..

كنت أتخيل أنى أمزق فستانها حتى تصرخ.. وتقول: ارحمنى.

ولكنها لم تكن تقول.. ارحمنى.. وإنما كانت تضم أطراف جسدها العريان.. وتنظر إلى نظرة من هذه النظرات التى تبرق.

وكنت لحظتها أفيق من خيالاتى.. وأتذكر الميعاد الذى بيننا فيخفق قلبى بشدة.

وتوترت أعصابى فلم أستطع النوم.. وظللت أحملق فى الظلام.. وأتقلب فى فراشى.. وأتململ.. وأنفخ.. ثم أحاول أن أطرد كل شىء من ذهنى لأنام.

وتضخمت أصوات الليل الخافتة.. فأصبحت جلية واضحة فى سمعى.. وبدأت أتتبع صوت قطرات الماء وهى تدق على الحوض.. وتكتكة الساعة.. وطنين موتور الثلاجة.

وتيقظت زوجتى وسألتنى إن كان هناك شىء يؤرقنى.. فقلت: لا شىء.. القهوة كانت شديدة وهى التى نبهت أعصابى..

وسمعتها تروح فى النوم من جديد.. وسمعت تنفسها يزداد انتظامًا وعمقًا كلما أوغلت فى النوم.. ثم أحسست بذارعها يحوطنى وينام وادعًا على صدرى.. وسمعت فمها يتمتم كلامًا لم أتبينه.. لا شك أنها كانت تحلم حلمًا رقيقًا حنونًا..

وسألت نفسى فى تلك اللحظة.. ماذا أريد؟

ماذا أريد بنفسى؟

هأنذا الآن زوج يتمتع بزوجة تحبه وطفل يعشقه.. وصحة وشباب ومال وجاه.. وهأنذا أتقلب على فراشى مؤرقاً كشخص مريض تلسعه الحمى..

ماذا أريد.. ماذا أريد؟

وكان السؤال صعباً.. أصعب من الأرق..

وشعرت بالصداع..

وثقلت رأسى جدا.. ورحت فى النوم.. نوم قلق تشوشه الأحلام وكلها أحلام من نوع واحد.. يخيم عليها الخوف..

فأنا فى مرة أركب تراماً فيخرج عن الخط.. وفى مرةَ أخرى أركب سفينة فتشرف على الغرق.. وفى مرة ثالثة أدخل الحمام فيسرق الخادم هدومى.. وفى مرة رابعة أذهب إلى المكتب فأكتشف

أنى نسيت الحذاء.. وأنى سرت طول الطريق حافياً.. ينظر الناس فى وجهى باستغراب.

وأنا دائماً أقع من آخر دور.. ولا أصل إلى الأرض أبداً.. وإنما أظل أهوى من حالق فى ذعر أوشك على الاصطدام والتناثر، كل ذراع فى ناحية.. ولا أجد شيئاً أمسك به.. ولا أحد أنادى عليه.

وحدى.. وحدى.. فى الهواء.. بلا أرض.. أقف عليها. لم يكن نومى نوماً.. كان عذاباً..

كنت أعانى..

وحينما فتحت عينى على ضوء النهار.. وشعرت بدفء البيت حولى. وسمعت ضوضاء الناس فى الشارع.. شعرت كأنى خرجت من جب مظلم تحت الأرض.. وأحسست بالراحة..

ولكنى بعد ذلك بساعة حينما وقفت أمام المرآة أتطلع إلى طولى وعرضى وأناقتى.. لم أستطع أن أنسى ذلك الإحساس الذى ظل يأكلنى طول الليل.. بأنى صغير.. وحيد ضائع فى الدنيا.

كل هذا الطول والعرض لم يسترنى وأنا نائم، وظللت أنتفض من الخوف كطفل تركته أمه وحيداً فى الظلام.

وحينما كنت أسير فى المساء إلى مكتب فاطمة المحامية، أحمل تحت إبطى ملفات القضية التى اتفقنا عليها.. عاودنى مرة أخرى ذلك الشعور.

وأحسست أنى أضرب الأرض بقدمى بشدة.. وأرفع رأسى فى صرامة.. وأقطب جبينى.. لأبعد هذا الإحساس بالضعف.

وحينها دخلت مكتبها.. وقابلتنى ضاحكة.. شعرت فجأة بالارتباك..

وسارعت إلى الملفات.. أفتحها.. وبدأت أشرح لها القضية التى حفظت كل تفصيلاتها.. وذاكرتها فى البيت جيدا.

وظلت تصغى ويدها على خدها.. وعيناها مسلطتان كالمصباحين الكشافين على وجهى طول الوقت..

وبعد فترة قضيتها فى القراءة، رفعت رأسى ونظرت إليها سائلا:

- هيه.. هل فهمت الآن المشكلة كلها؟

ولكنها انفجرت ضاحكة.. وأغرقت فى الضحك.

- لماذا تضحكين؟

- لأنك جد جدا.. ولو قدر لك أن ترى نفسك لضحكت أكثر منى.. إنك تدخل متجهماً وفى يدك الملفات وكأنك النائب العام ثم تخبط الملفات على المكتب.. وتفتحها وتمضى فى القراءة بصوت عال.. ثم تسألنى فجأة كأنى تلميذة.. وتقول.. هيه.. هل فهمت.. أراهن أنك لم تفهم كلمة واحدة مما قلته.. لقد أضحكتنى يا شيخ..

وتراخت أعصابى دفعة واحدة.. وابتسمت رغماً عنى.. ووجدت نفسى أنظر لها فى استسلام.. وقد أيقنت أنى افتضحت.

وأخذت أتلهى بالنظر إلى الغرفة حولى.. إلى القماش الأزرق الذى يغلف الكراسى، والأباجورة التى تتدلى على تمثال امرأة عارية.. وإلى عينى فاطمة اللتين يعربد فيهما الكلام..

وكان واضحاً أننا نحن الاثنان لا نهتم كثيراً بأمر القضية.. وأننا كلانا نبحث عن مواضيع أخرى نتكلم فيها.

وقلت وأنا أشير إلى الأباجورة:

– أنت أيضاً تزينين غرفتك بتمثال امرأة عارية.. كنت أظن أن هذا الضعف فينا فقط نحن الرجال.

– لقد بحثت عن تمثال رجل عار فلم أجده.. إن الذنب ذنب النحاتين الذين لا ينحتون إلا النساء..

وصبت لى الشاى فى الفنجان أمامى.. وبدأت أشرب وقد عدت إلى نفسى قليلا.. وزال عنى الحرج. فلم أعد بحاجة إلى الكذب، والكلام.. فى القضية..

قضية إيه؟!

وقلت وأنا أتلفت حولى:

– مكتبك جميل.. لا يبدو أنه مكان تناقش فيه القوانين.. إنه صالون..

– إنى أحب أن أستمتع بحياتى وعملى.. إنى أحيط نفسى هنا بكل الأشياء التى أحبها.. وأنت تجد حولى كل شىء.. حتى الراديو.

وأخرجت راديو صغيراً فى حجم علبة السجاير.. وأدارته فخرجت منه الموسيقى.

– يا ترى بيتك جميل هكذا مثل مكتبك؟.

– أجمل بكثير.

– إن زوجك رجل سعيد.

وضحكت ضحكة جافة.

– زوجى.. لقد طلقت زوجى من زمان.. إن الحرية أجمل شىء فى الدنيا.. هل جربت حياة العزوبة؟

– لا..

– أنت مسكين.. لقد ضاع نصف عمرك.. إن أجمل شىء فى الحياة أن تعيش لا تعرف ماذا يحدث لك غداً.

ألا تخافين من كلام الناس.. وأنت تعيشين هكذا.. زوجة مطلقة فى بيت طويل عريض وحدك حرة كما تقولين؟.

– ومن هم الناس الذين أعمل حسابهم.. كل الناس كذابون.. ثرثارون منافقون تافهون.. أنا أعطى لهم المثل.. وهم يمشون خلفى.. ويقلدوننى.. إن كل جارة من جاراتى تتمنى أن

يكون لها مكتب مثل مكتبى، وعمل ناجح وزوج تطلقه وتعيش حرة مثلى. ولكنها تقول كلاماً آخر حينما تسألها.. لسانها يقطر كذباً وحسداً.. أتريدنى أن أحسب حساباً لمثل هذه المرأة؟ إنى أعيش حياة واحدة.. فكيف أتنازل عنها لامرأة ثرثارة كذابة ولماذا؟ لمجرد أن ترضى عنى.. وماذا.. يساوى هذا الرضى الكاذب؟

وقاطعتها فجأة لأقول فى نبرات حادة:

قولى لى.. لماذا حدث الطلاق بينك وبين زوجك؟

وشعرت أنها تضايقت.. ولكنها أجابت فى برود:

– لأنه رجل مغفل.. مثل كل الرجال المغفلين.. يريدنى أن أكون جارية يملكها، لا زوجة يشاركها حياته.. يريد أن يجرى ويلهو على كيفه، ثم يعود إلى البيت ليجدنى راكعة عند قدميه.. أقول له يا حبيبى.. يا معبودى.. وكأنى أرض وقف مكتوبة باسمه.. يتركها خرابة مائة سنة، ثم يعود فيجدها مازالت خرابة..

وقلت لها بهدوء:

– هل كنت زوجة مخلصة؟

فأجابت وهى تضحك ضحكة مقتضبة:

– إن الإخلاص تعقل لا داعى له.. إنه أحياناً يلائم المرضى والمقعدين، وأصحاب الأعمال الذين لا يجدون وقتاً ليعيشوا ويستمتعوا..

ثم انتفضت فجأة لتقول بغيظ:

– ولماذا تطالبون المرأة وحدها بأن تكون مخلصة؟.. لماذا لا تطالبون الرجل بالإخلاص.. لماذا تغتفرون له عندما يخطئ ولا تغتفرون للمرأة؟

– لأن المرأة تحمل ثمرة خطئها.. لأن خيانة المرأة معناها طفل غريب فى العائلة..

– وخيانة الرجل معناها أيضاً طفل غريب فى عائلة أخرى..

– عائلة أخرى بعيدة عنا..

– يا سلام.. ألا تحس بأنك تستحق الشنق وأنت تقول هذا الكلام الفارغ!

وعادت إلى الضحك وأردفت فى دلع:

– وإذا كانت الأطفال هى كل المشكلة.. فيمكن أن نلجأ إلى موانع الحمل..

– هذا هو الانحلال بعينه.. تصورى زوجة تحمل فى حقيبة يدها موانع الحمل، كما تحمل أصابع الروج وزجاجات البارفان.. هل يمكن لمثل هذه الزوجة أن تهتم بعمل أو بيت؟

– ولماذا لا تقولون هذا الكلام لأنفسكم يا رجال؟ ألا تحملون أمثال هذه الأشياء فى جيوبكم أحياناً.. ألا تحمل أنت الآن فى جيبك هذه الـ..

دعنى أفتشك..

وهجمت على فجأة لتفتشنى.. وألجمتنى المفاجأة.. فتركتها تعبث فى جيوبى وتخرج المناديل.. والمحفظة.. وتفتشنى جيباً جيباً بدقة..

وأخيراً سمعتها تقول فى رقة ولطف:

– يا لك من طفل وديع صغير.. إنك لا تحمل سوى قطعة شكولاتة.. يا لك من ملاك!

وداعبت خدى بأصبعها.. واحمر خداى من الخجل والإحراج وشعرت بالغيظ لأنها تعاملنى هكذا كأنى طفل.. وقلت بجفاء:

– لا تظنى أنى ملاك إلى هذه الدرجة.. إنى فى الحقيقة شيطان على طريقتى أحياناً..

ونظرت إلى بخبث:

– أحقا.. أنا لا أصدق.. أن الشياطين لا يقولون عن أنفسهم شياطين..

وأردفت فى دلع:

– وما دمت تأكل البونبون والشيكولاتة يا شيطانى.. فماذا تشرب هل تشرب تليو؟

ومالت على جرس خلفها لتدقه.

– سوف أطلب لك تليو..

- واشتد غيظى من سخريتها.. ولاحظت هى أنى مغتاظ.. فسكتت وقالت برقة:

- هل آلمتك؟ لماذا يؤلمكم يا رجال أن نقول عنكم إنكم قطط صغيرة وديعة ويسركم أن نقول عنكم وحوش؟ أنتم أغبياء.. أنا فى الحقيقة لا أحب إلا القطط الصغيرة الوديعة..

- هذا شذوذ جنسى..

وضحكت ضحكة خليعة..

- ليكن شذوذاً.. ماذا يهمني.. إنى امرأة نباتية معدتى رقيقة.. لا أحب لحم الحيوانات، وإنما أحب الخضراوات الناعمة الغضة مثلك فقلت بغضب:

- أنا لست ناعماً ولا رقيقاً..

- حسناً أنت خشن غليظ.. أيرضيك هذا؟ أرجوك لا تحاول أن تكون حيواناً.. إن زوجى كان حيواناً.. كان طويلا وعريضا.. وغليظا كالثور.. وكان يخور وهو يتكلم.. وكان يهز الأرض وهو يمشى.. ومع هذا لم أكن أحتمله.. كنت أشمئز منه.. إنى لا أطيق هذا الصنف من الرجال الذى يختال بعضلاته وشعر صدره. إنه يقززنى.. إنى أحلم برجل من نوع آخر رجل رقيق المشاعر ساهم النظرات مثلك.. أرجوك لا تحاول أن تلبس أمامى فروة الأسد.. إنك تفقد كل سحرك وتصبح شيئاً مضحكاً.

والحقيقة أنها أغاظتنى لدرجة أنى بدأت أضحك بعصبية. ثم

بدأت هى الأخرى تضحك.. وأخذنا نضحك نحن الاثنين فى مرح..

وماذا يهم إن كنت أسداً.. أو قطة.. ما دمت..

وتلاقت أيدينا على المكتب ونحن نضحك، وتماسكت أصابعنا بعصبية.. وتشبث كل منا بالآخر، كأنه غريق يمسك بطوق النجاة.

وخفتت ضحكاتنا شيئاً فشيئا.. ولكن أيادينا ظلت متماسكة.. ونظر كل منا للآخر نظرة مليئة بالود.

٣

كانت الساعة تدق الثانية بعد منتصف الليل.. وأنا سهران.. أنظر بعينين مفتوحتين إلى النافذة التى تشبه بروازاً أسود حول سماء مرقشة بالنجوم..

وكان الهواء راكداً لزجا.. والجو حارًّا.. وقد تخففت من ثيابى حتى أصبحت ألبس جلباباً رقيقاً على اللحم.. ومع هذا لم أكن أشعر برغبة فى النوم..

ودق التليفون إلى جوارى وسمعت صوت فاطمة تقول فى إعياء ونبرات ممطوطة:

– آلو.. أنت.. ماذا تفعل؟

– لا شىء.. صاحية إلى الآن..؟.. ما الذى يبقيك حتى هذه الساعة؟

– متعبة.. مريضة.. جسمى كله مهدود. إنى أحادثك من

فراشي وبطني تؤلمني آلاما حادة، وقد خرج الطبيب منذ لحظة بعد أن أعطاني حقنة..

- سلامتك..

حلمي.. أنا خائفة..

- خائفة. من ماذا..

- أخشى أن أموت هكذا وحدي، أو أنام فلا أصحو من نومي أبداً.

- ما هذا التخريف؟

- البيت حولي يشبه مقبرة في هذه الساعة من الليل..

- أليس معك أحد في البيت.

- معي الطاهية العجوز وقد سافرت البلد.

- آمنت الآن بأنك لا تستطيعين أن تملئي بيتاً وحدك، حتى ولو كانت معك شهادة حقوق..

- أنت مجرم.. أهذا وقت الشماتة؟ أي بطني.. إن النوبة ستعاودني.. إني خائفة.. أرجوك..

- ألم تستريحي على الحقنة؟

- بطني.. بطني..

- سوف أحضر حالا..

ولبست ثيابى بسرعة وهرولت خارجاً.

وفى الطريق كان قلبى يدق بعنف فى ضلوعى.. وكنت أسال نفسى ما معنى كل هذا؟ هل أحب فاطمة؟ هل أحبها حقا؟ وهل هذا هو الحب الذى يقولون عنه؟

لا أنكر أنى أشعر بسعادة فى الجلوس إلى جوارها.. وأنتظر مواعيدها بلهفة.. وأرتب فى ذهنى كلاماً كثيراً لأقوله ثم أنساه.. وأشعر بخدر فى جسمى وأنا ألمس يديها.. وأصحو على شوق.. وأنام على شوق.. وأعيش بانتظار شىء ما كل يوم..

إن العقل يتعب.. ما فائدة التفكير فى كل هذا؟

وكنت أدخن آخر سيجارة فى العلبة، وأقنع نفسى بأنه لا داعى للتفكير فى شىء وأدق الجرس.

وفتح لى تمورجى..

ودخلت فوجدت الطبيب إلى جوارها.. يحقنها بحقنة ثانية.

ورفعت إلى وجهها وبرقت عيناها.. وكان الطبيب يؤكد لها أنه لم يجد شيئاً فى الفحص.. وأن المغص سببه احتقان بسيط فى المبيض.. وهى مسألة غير مهمة بالمرة. ويمكن أن تنشأ من البرد أو من الإفراط فى الشراب.. وكانت رائحة الشراب تفوح منها فعلا.

وخرج الطبيب وبقيت إلى جانبها.. وكان وجهها سعيداً

وكانت أساريرها مسترخية فى راحة.. وقد زال الألم تماماً وحلت محله شقاوة تبدو فى عينيها.. وركنى فمها.. وهما يرتعشان فى خبث..

وأمسكت بيدى.

- يدك دافئة أدفأ من يدى.. هذا يدل على أن قلبك بارد..

- ويدل أيضاً على أن عقلك فاض.

- سوف أقطع لسانك الطويل هذا.. سوف أقصه بهذا المقص يا طفلى الصغير.

وغمزت لى بعينيها..

- أما زلت تحمل شيكولاتة وبنبون فى جيبك.. أين كنت تتشيطن اليوم؟

لا شىء يؤدبك غير المرض. لقد كنت نائمة منذ دقائق ساكنة ومذعورة مثل الفار.. ما كان يجب على الطبيب أن يعطيك هذه الحقنة.

- اسكت إنها حقنة لذيذة جدا.. لقد قال الطبيب إنها هى الحقنة التى يأخذها المساطيل.. وأنا الآن مسطولة، ومبسوطة.. والدنيا أمامى مثل حضن كبير حلو..

- إنها ليست الدنيا التى تزغلل عينيك.. إنها الرجل الذى يقف بجوارك..

- ها.. ها.. ها.. أنت مغرور.. أنا لا أحب الرجال.

- ماذا تحبين إذن؟

- أحب البنبون والشيكولاتة.. ها.. ها..

- إذا كانت حقنة مخدر واحدة تجعلك تتكلمين هكذا.. فإنك سوف تصبحين مدمنة خطرة.

- أنا مدمنة خطرة لكل شيء.. أنا مدمنة لحظات سعيدة.. مدمنة دنيا.. اسمع.. إن الدنيا مثل الأفيون تماماً.. طعامها يصيب الجسد بالخدر والهمود.. وروائحها العطرة تدوخ.. وشمسها تسطل.. ونسيمها يدغدغ الخدود.. وعنبها يسكر.. وخمرها يسكر.. وكل شيء فيها يسكر.. الدنيا مخدرات.

- أنت أخطر ما فيها من مخدرات.

- اسمع.. إني أحيانا أكون نشوانة لدرجة أنني أشتهى أن أجرى عريانة فى الشارع.. لا.. لست عريانة تماماً.. وإنما بالمايوه.. وأتمرغ على الحشيش.. كنت أقول هذا لزوجي.. وكان زوجي يقول عنى امرأة سافلة.. ويعطيني محاضرة فى الأخلاق والآداب العامة.. أنتم يا رجال مغفلون كلكم مغفلون.. كل شيء عندكم عيب وحرام ومخل بالعرض والشرف.. الحياة كلها فى نظركم شرف رجل.. أية جريمة عندكم تغتفر.. إلا أن يتلوث عرض أحدكم وتشتهى أخته عين أو تلمسها يد.. عمركم يضيع فى هذه الخرافة.. مغفلون.. أنتم تضعوننا فى أضرحة وتعبدوننا

وتتبركون بنا.. ونحن بشر مثلكم تماماً.. نتحرق على لمسة ونظرة وقبلة.. ونكلفكم ملايين الجنيهات سنويًّا ثمن روج وبودرة ومانيكير ونحول الشوارع إلى معارض إغراء تحت سمعكم وبصركم.. وأنتم تتأججون بالغيرة لأنكم حمقى لا تفهموننا.. إننا ليس لدينا فكرة إطلاقاً عن حكاية العرض المقدس هذه.. ولا نفكر إطلاقاً فى أن نحمى شفاهنا من القبلات ونحمى أجسادنا من النظرات.. نحن نفعل هذا لنضحك عليكم.. ثم نعيش حياتنا الخاصة من ورائكم كما نحب ونشتهى.. يا دلاديل.. يا بلهاء.

– أنت أسفل امرأة عرفتها.. ولولا أنك تقولين هذا الكلام وأنت سكرانة ومسطولة لضربتك..

– يا طفلى الصغير.. إنى لم أكن فى وعى أبداً.. كما أنا الآن..

– أنت تخرفين.. ولو كنت زوجتى لشنقتك.

– لو كنت زوجتك.. لما علمت شيئاً عنى.. لأنك أبله.. ولأنفقت عمرك فى عبادتى.. وإغلاق النوافذ والأبواب حتى لا تطولنى الشمس ولضيعت حياتك وعقلك فى الغيرة.. على مدامتك المحصنة.. فاطمة.

ونطقت الكلمات الأخيرة فى خلاعة وتبذل.. فقلت لها فى غيظ..

– أنت أحط زوجة فى الدنيا.. هل هذا هو التقدم المنشود

الذى حلمنا به فى المرأة المتعلمة.

- لابد أن نفعل شيئاً لتفيقوا، إن الحياة أوسع وأجمل من هذه النظرة التناسلية التى تعيشون فيها، والنظافة التى تحلمون بها، وأنتم أقذر خنازير.

واستبد بى الغيظ فى تلك اللحظة، ونسيت أنها مريضة وأخذت أهزها بعنف.

- أنت الخنزيرة.. أنت أكبر خنزيرة.

وأفلتت منى وأطلقت ضحكة هيستيرية مجلجلة، وكان واضحا أنها سعيدة جدًّا بهياجى وغضبى، ولكنى أمسكت نفسى وعدت إلى هدوئى.

- أنتم أطفال: أتؤلمكم الحقائق إلى هذا الحد، لا فائدة من إصلاحكم.. حسناً يا شيطانى الصغير. لا تغضب.. نحن نساء طاهرات محصنات عفيفات لا نرغب ولا نشتهى، ولا نعجب ولا نحب ولا نحس، نحن لفافة عرض موضوعة فى صرة. نحن شرفكم المصون.

وضحكت فجأة فى خلاعة وقالت بصوت مخدر.

- نحن شرفكم.. ها.. ها.. أليس هذا مضحكا.. حرصكم على أن نكون نحن شرفكم.. إن شرفكم أعمالكم يا مغفلون. وليس نساؤكم أليس عجبًا إنكم لا تريدون أن تقبلوا هذه الحقيقة البسيطة.. آه لقد تعبت.. تعبت، رأسى بدأت تثقل..

حلمي.. إن دماغي ثقلت جداً.. لا تتركني إني أخاف أن أنام فلا أصحو.. آه الغرفة تدور.. ضع يدك على رأسي أليست دافئة؟

وأخذت يدى ووضعتها على جبينها.. وتراخت أجفانها، وبعد دقائق كانت تروح فى النوم.. وأنا إلى جوارها.. وصدرها يعلو ويهبط، وأنفاسها تخرج معطرة دافئة.

وكانت يدها ما زالت تتشبث بيدى.. وكانت تتقاذفنى إحساسات كثيرة ومتضاربة.. ولكن منظرها وهى تنام فى وداعة وقلة حيلة سلبنى ثورتى وغضبى.. فأخذت أنظر إليها فى حيرة وعجب.. أين ذهب البركان الذى كان منذ لحظات يقذف بالحمم؟ أين نامت النار التى كانت تتأجج فى هذا الصدر؟

وكانت تمسك بيدى فى لطف ورقة.. وأحسست بالحنان رغما عنى. ونزلت بيدى على خدها وعنقها، ولمست صدرها ثم سحبت يدى بسرعة وتمشت فى بدنى قشعريرة.

وتذكرت ليلة دخلتى بزوجتى.. وكيف كنت أحاول أن أحل عقدة لسانى وعقدة غرائزى بأن أشرب الويسكى.. وتذكرت الآن.. وأنا أحاول أن ألجم غريزتى..

كانت هذه هى الشهوات الحقيقية.. أحسها لأول مرة.. كاملة.. عارمة..

ولا أدرى كم من الساعات ظللت أصارع نفسي، وأنا جالس فى الكرسى أدخن.

ولكنى أفقت من هذا الصراع على صوتها فى الفجر يهمس إلى جوارى وعينيها وهما تبحثان عنى.. وذراعيها وهما تضمانى وتجذبانى إلى جوارها فى ضعف.

وسمعتها تهمس وهى تحتضننى:

- إنك رجل غريب.. إن جسمك بارد مثل الضفدعة.

وجذبتنى من عنقى.. فى دلع.. وغمرتنى بالقبلات.

* * *

كل ما أذكره وأنا عائد إلى بيتى هى كلماتها الأخيرة وهى تودعنى قائلة: «أنت خنزير قذر.. وستقول لزوجتك ذلك. أم أنك ستكذب» ومنظر وجهها وهى تقبلنى فى مزيج غريب من السخرية والحب هامسة:

- أمازال فى نيتك أن تشنق زوجتك إذا ضبطتها فى أحضان رجل آخر.. أم إنك فقدت الشجاعة.. وفقدت الشرف أيضاً.

ولا أعرف بالضبط ماذا فقدت فى ذلك اليوم.. ولكننى تغيرت كثيراً.. ولعلى فقدت خوفى.

ولعل شيئاً ما قد تغير فى شكلى ومنظرى أيضاً.. لأن زوجتى قد لاحظت ذلك وقالت فى قلق:

- مالك.. شكلك متغير.

- لا شىء.

– تعبان؟؟

– أبداً.

– الأستاذ عزيز سأل عليك ثلاث مرات بالتليفون..

وأمسكت بالتليفون وضربت النمرة.. ورد الأستاذ عزيز فى شوق:

– أهلا يا أخى.. إنت فين.. أنا أبحث عنك من الصبح.

– كنت فى مشوار..

– طيب تعال.. اخطف رجلك وتعال.

ولم أفكر فى سؤاله عن سبب هذه الدعوة المفاجئة.. ورحبت بهذه الفرصة التى تبعدنى عن بيتى قليلا..

وخرجت لتوى.. لأدق الباب على جارنا عزيز.. وفتح لى عزيز بنفسه.. وقادنى من يدى إلى غرفة داخلية، وعرفت من الوهلة الأولى لماذا كان عزيز يبحث عنى طول النهار.. كانت برتيتة قمار حامية تدور رحاها فى الغرفة..

وقدمنى عزيز إلى ثلاثة لا أعرفهم.. الأستاذ فلان.. فلان.. فلان، والفلان الوحيد الذى أحفظ صورته الآن هو اللاعب الذى كان يجلس فى مواجهتى، وهو رجل نحيل ممصوص له شارب كث يغطى فمه..

وجلست ألعب وأكسب، وأقرقر فى سعادة كالقطة التى أكلت

جيداً، ووجدت مكاناً ليناً دافئاً تتمدد عليه، ولم أكن أفكر فى شىء.. ولم أكن أرى شيئاً سوى الورق فى يدى.. وأبو شنب الجالس أمامى كالصنم.. يسبح فى موجة من الدخان.

وسمعنا صوت البيانو آتيًا من الغرفة البعيدة.. كانت نانى تعزف.. نفس المقطوعة التى عزفتها يوم عيد ميلاد ابنى..

وكانت الأنغام تأتى إلى أذنى رقيقة حزينة..

أين سمعت هذه الأنغام؟..

- آه.. تذكرت الآن أنها مقطوعة الطائر السجين.. لفرناندو..

وكانت الأنغام حزينة جدا، متعالية مترفعة.. كأنها بكاء إله فى سجنه.

وقطع عزيز الصمت قائلا:

- أتعرفون لماذا نحب القمار؟

وقلت فى هدوء وأنا ألعب:

- لا أعرف.. ولا أريد أن أعرف.

وقال أبو شنب:

- إن ألذ أوقاتى هى التى ألعب فيها القمار.. إنى أنسى كل شىء.. زوجتى.. وأولادى.. وبيتى.. وعملى.. وأمسى ويومى وغدى أليس هذا هو أجمل شىء فى الدنيا؟

- نعم.. ولكنك تدفع دمك ثمن هذا النسيان..
- إنى أنسى حتى هذا أيضاً.

وفى الحقيقة لم أكن أعلم لماذا أحب القمار؟ ولكنى كنت أحس أن كل لحظة فى أثناء اللعب تبدو لحظة مهمة جدًّا بالنسبة لى.. وهذا فى نظرى سبب كاف لأحب أى شىء..

وضايقنى أن أفكر هكذا.. وفقدت شهيتى للعب.. فأهديت الجنيهات العشرة التى كسبتها لعزيز.. وجلست وحدى بعيداً.. أتفرج عليه وهو يخسرها ثم يكسبها.. ثم يخسرها من جديد.. ثم يكسبها.. ثم يخسرها.. ثم يكسبها.. ثم يخسرها.. ثم يكسبها.

وكان قد بدأ يصبح عصبيًّا.. وأصبح يريد أن يتخلص منها فيخسرها إلى الأبد.. أو يلقى بها من النافذة.

واستبدت بى الرغبة فى الضحك، فضحكت بصوت عال. والتفتت إلى أربعة وجوه فى وقت واحد فى دهشة.

ولم أكن أعرف أن منظر القمار من بعيد يبدو مضحكاً إلى هذا الحد، ولكنه فى الحقيقة كان يبدو لى فى تلك اللحظة مضحكاً جدًّا.

وأشد ما كان يضحكنى هو منظرهم، وسحنتهم المقلوبة.. وأعصابهم المشدودة.

ماذا يريدون بالضبط؟!.

وماذا أريد أنا أيضاً؟!

وعاد الطائر السجين يغرد بأنغامه الحزينة.

وانقبض قلبى بشدة، كأن يداً من حديد قد أمسكت به واعتصرته، حتى كادت روحى تخرج منى.

وأحسست فى تلك اللحظة أنى فى حاجة إلى صاحبتى لأكلمها. وأبكى على صدرها كالطفل.. وأقبلها.. وأحتضنها.. وأفقد وعيى بين ذراعيها..

واستأذنت من الجماعة لأنصرف.. ونظر إلى عزيز نظرته إلى رجل غريب الأطوار.. وقلت له مازحاً:

- إن جنيهاتى العشرة، جنيهات منحوسة.. إنك لن تستطيع أن تكسبها.. ولن تستطيع أن تخسرها.. ولن تستطيع أن تنفقها.. إنها كاللعنة الفرعونية لا حل لها..

وخرجت..

وصافحت أنفى نسمات الصيف العليلة، فآثرت أن أمشى وتركت عربتى فى الجراج.. وسرت أستاف الهواء فى خياشيمى.. وأهز يدى جانبى.. وأنظر إلى الناس.. وكل واحد فيهم يسير ملفوفاً فى مشاكله كأنه دنيا صغيرة.. لا يفيق منها إلا لحظات. يتلفت حوله.. ها هو ذا واحد يعرفه.. وأهلا وسهلا. كنت فين. مضى وقت طويل لم نرك، لابد أن تزورنا يا أخى.. ثم يعود فيغطس فى دنياه ويغلق باب قمرته، ويبحر إلى الأعماق البعيدة فى نفسه.

ويبحر.. يبحر إلى أين!!؟

وتشوقت إلى شاطئ..

إلى حبيبتى.

كنت فى حاجة إلى لحظة راحة.. لحظة سكون.. لحظة عدم تفكير فى أى شىء..

ويبدو أنى مشيت كثيراً، لأنى بدأت أحس بألم فى عضلات ساقى فاتجهت إلى بيت فاطمة.

وكان أول شىء فعلته حينما وصلت أنى رفعت السماعة، وطلبت زوجتى وقلت لها: إنى سأتغيب لمدة ثلاثة أيام فى سفر إلى البلدة لأعمال ضرورية.

وكانت فاطمة واقفة إلى جوارى تضحك بصوت خافت، وحينما وضعت السماعة قالت فى سخرية:

– لقد أصبحت خنزيراً عريقاً فى الخنزيرية.. إنك تكذب دون أن يطرف لك رمش.. هذه قدرة غير عادية.

وكانت واقفة بقميص النوم.. أمام المرآة.. وكانت تبدو كحيوانة.. حيوانة لم تهذب فيها الثقافة شيئاً.. وإنما أطالت أظافرها، وشحذت غرائزها.. وأعطتها القوة، والجرأة.. والوقاحة..

وتركت المرآة لتقبلنى فى فمى..

وقلت أذكرها:

- ماذا ستفعلين في قضية الوقف؟

فأجابت ضاحكة:

- إن الوقف هو أنت وقد حللنا الوقف.. لم تعد خرابة موقوفة على زوجتك كما كنت زمان.. وإنما أصبحت ملعب كرة.. أليس هذا انتصاراً رائعاً.. هل رأيت دفاعاً يفوز بالحكم بهذه السرعة؟.

- لا أظن أن الأمر قد تغير كثيراً.. فقد تحولت من خرابة موقوفة على زوجتى إلى خرابة موقوفة عليك.. ومعنى هذا أننا سوف نحتاج إلى محامية أخرى لتحل الوقف من جديد.. إن المشكلة مازالت باقية..

- آه.. ماذا تقول.. إنى أذبحك.. وأتغذى على لحمك إذا حدث هذا.. إن القضايا عندى تخرج من يدى إلى القبر قبل أن تخرج إلى يد أخرى.. إن المرأة التى تنافسنى لم تخلق بعد.. هل تسمع.

- هل أفهم من ذلك أنك تطالبيننى بأن أكون مخلصا؟.

- إنى أفهم شيئاً واحداً هو أنى أحبك.

- وهل يعنى هذا أنك تكونين مخلصة لى؟

- أوه.. هذه مسألة أخرى..

وجذبتها من شعرها فى غيظ..

- تعالى.. هنا..

ونظرت إلى ثم ضحكت..

- يا صغيرى.. إنك تصبح رائعاً حينما تغضب.. إنى أموت فى غضبك..

وراحت تقبلنى وهى تهمس:

- إنى أغيظك.. أثيرك فقط.. أنت تعلم كم أحبك.. وقبلتها فى شفتيها وأنا أقول:

- أنت امرأة مجنونة تماماً.. وأنا أحبك لأنك مجنونة..

- يا شيطانى.. يا طفلى الصغير الجميل.. يا حبيبى.. يا جنونى.

- أحبك أحبك. يا أحط امرأة فى الدنيا.

- وأنا أعبدك. يا أحط رجل فى التاريخ.

- يا حيوانة.

- يا مسكين. لماذا تبدو دائماً مسكيناً حتى وأنت تقسو وتشتم؟ لماذا تبدو عيناك مسكينتين وأنت تكذب وتخطئ وتأثم؟ لماذا تبدو بريئاً تعساً دائماً؟ لماذا لا يفارق الأسى والحزن عينيك؟ لماذا تبدو طفلا شقيًا يتيماً؟ إن ضعفك يفقدنى صوابى. كم أتمنى أن أفهمك. كم أتمنى أن أسعدك. لماذا تبدو قلقاً مشتتاً هكذا. ماذا

تريد؟ هأنذا بين يديك. اقتلنى ولكن لا تنظر إلى هكذا. إنك تنظر إلى كأنك لا تعرفنى. تنظر إلى بلا عقل، بلا أمل، ما الذى يعتصر قلبك؟ ما الذى يوزع خواطرك هكذا؟ ما الذى يبلبل تفكيرك؟

وأخذت تهزنى بشدة:

– انظر إلى.. إلى أنا.. لا تنظر هكذا كأنك تحملق فى الهواء.. حلمى.. حلمى..

– ماذا أفعل وهذه هى حقيقتى؟ ماذا أفعل؟ آنا مسكين فعلا مسكين جدا.. جدا..

وبكيت..

وبكيت بحرقة على صدرها..

٤

كانت فاطمة تجلس وسط الغرفة ملفوفة بفوطة، وقد خرجت لتوها من الحمام.. وشعرها كله مبتل ومرجل ومعقوص إلى فوق.. وهى تفكه وتسرحه وتضع فيه البنسات.. وظهرها إلى ناحيتى.. وأنا فى الفراش يجثم على أنفاسى الملل.. وأتمنى من أعماقى أن تتركنى وحدى وتذهب إلى أى غرفة أخرى..

وسمعتها تدندن بفمها.. ثم تقوم وتذهب إلى المطبخ. وتنفست الصعداء.. ونسيتها تماماً.. ونمت.. لم أتذكر أنها معى إلا حينما أيقظتنى وفى يدها كوب من عصير البرتقال..

وكانت عيناها طيبتين وديعتين.. وقد انطفأت منهما الشراسة القديمة.. وحل محلها خضوع أليف.. وناولتنى الكوب.. وقبلتنى فى خدى وقالت فى رقة:

- أتحبنى يا حلمى..

فقلت وأنا أغتصب الكلمات اغتصابا:

نعم..

وشربت الكوب فى جرعة واحدة..

ونظرت إلى فى عينى.. ولكنى أبعدت عينى عنها..

وقالت فى نبرة حزينة:

- أنت لا تحبنى..

فقلت فى هدوء وقد أحسست أنه لا فائدة من المضى فى الكذب:

- نعم..

- إذن لماذا فعلت كل هذا؟

- لا أدرى..

وسكتت لفترة طويلة ثم قالت فى ألم:

- ألن نلتقى بعد الآن؟

ولم أعرف بماذا أجاوب..

ولأول مرة منذ عرفتها رأيت وجهها المتكبر يتضعضع أمامى ثم يتهاوى فى بكاء مر..

وغمغمت من خلال دموعها:

- ألم تشعر معى بلذة؟

فقلت فى صدق..

- شعرت باللذة التى لم أشعر بها أبداً فى حياتى..

- إذن لماذا تتركنى هكذا.. وماذا كنت تريد لتحبنى؟

وتضعضعت الكلمات فى فمها من جديد..

ولم أعرف بماذا أجاوب.. ولا ماذا كنت أريد منها.. ولا ماذا أريد من نفسى؟

- هل أنا قبيحة؟

وأزاحت الفوطة المبتلة لتكشف عن جسمها الجميل المندى بالماء.. وبحثت بعينى فى جسمها.. ذلك الجسم الذى كان يفتننى ويصيبنى بالدوار كلما لمسته.. وأحطتها بذراعى.. ولكنى لم أحس بشىء إطلاقاً.. وبحثت فى عينيها عن المرأة الجريئة المستهترة الوقحة التى كانت تنتفض بالتحدى ولكنى ألم أجد غير امرأة منكسرة.

وخيل إلى من نظرتها أن عمرها قد زاد عشر سنوات.. ولم أعرف ماذا أحببته فيها ذات يوم. ولا ماذا أكرهه فيها الآن.

كل ما أعرفه أنى كنت أشعر بالملل.. وبحاجة شديدة إلى أن أصبح وحدى..

أما هى فكانت تنظر إلى فى أمومة وحنان وتربت على كتفى قائلة:

- أنت مسكين..

وتبكى وتمسح دموعها.. وتغمغم..

ولكنى أحبك.. ولا أقوى على فراقك أبدًا.. أبدًا.. ولم يحدث أن أحببت رجلا كما أحببتك.. ولا أعرف ماذا أفعل لتحبنى.. ماذا أفعل..

وكفكفت دموعها وهمست فى حيرة:

- أريد أن أعرف ما هو الحب.. منذ أيام كنت ألهو معك كما ألهو مع أى رجل.. كنت فى نزوة شقاوة.. وكنت أتسلى.. وأقضى وقتاً.. كعادتى.. دائماً.. وما أكثر الأوقات التى قضيتها كامرأة مطلقة فاضية ليس وراءها مسئوليات ولا مشاغل.. وكانت أوقاتى تنتهى.. وتنتهى معها نزواتها.. ولكن هأنذا الآن أمام إحساس آخر تماماً.. وقت لا يريد أن ينتهى.. ونزوة لا تريد أن تشبع.. ماذا حدث لأحبك.. وما هو سر هذا التعلق الذى يعذبنى.. وهذا أنت جالس أمامى.. ضجر ملول.. تتأفف.. وتكاد ترفضنى.

- ولهذا تحبيننى.. إنه ليس حبًّا.. ولكنه كرامة مجروحة.. وأنوثة مهينة.. أنت تريدين أن تمدى فى هذا الوقت على أمل أن تنتهى إلى نهاية تنصفك.. إنه ليس حبًّا لى.. ولكنه حب لنفسك..

- أنت مسكين.. أنت لا تصدق حتى هذه الحقيقة البسيطة.. إنى أحبك.. ماذا أفعل لتصدقنى؟

- أنت مدمنة لحظات سعيدة ليس إلا.. أنت مدمنة دنيا..

مدمنة مخدرات اسمها الرجال.. أليست هذه هى فلسفتك وكلماتك بالحرف؟ وها أنت تقولين الآن إنك تحبينني وتذوبين حبًّا..

- إنى أحس بإحساس جديد.. لم أعرفه أبداً..

- أليس من الطبيعى أن نشك دائماً فى الأشياء الجديدة.. وخصوصاً حينما تكون غير طبيعية وغير متمشية مع شخصياتنا..

والحق أنى كنت أشعر بشىء ما فى شخصيتها لا أرتاح إليه.. شىء غير طبيعى..

لم تقو اللذة الجسدية التى جمعتنا ثلاثة أيام متوالية على أن تتغلب على هذا الشعور.. وظلت علاقتى معها بالجسد وحده.. بينما روحى تهيم بعيدة نافرة..

وكانت لذاتى يعقبها الضيق والندم والهوان.. لأنى تركت جسدى يسوقنى ويجرنى كالدابة..

وكنت أفيق أحياناً.. فأتمنى أن أخرج.. أهرب ولو من النافذة..

وحينما ضعفت فى لحظة.. وبكيت كالطفل.. وكشفت لها عن عذابى.. خجلت..

خجلت جدًّا كأنى تعريت أمام إنسان غريب لا أعرفه..

وأحسست بما هو أكثر من الخجل.. بالكراهية.. وبالنفور منها لأنها رأت ضعفى هكذا خلسة.. وساورتنى الرغبة فى الفرار..

ولم يعد وجودها حولى يسعدنى.. وإنما أصبح يفضى بى إلى توتر مبهم لا أدرى سببه.

أنا مسكين.. نعم مسكين.. مسكين..

ولكنها إنسانة غريبة لا أعرفها.. فلماذا تدخل غرفتى الخاصة.. وتنكش فى أدراجى.. وتعبث فى نفسى.

أنا لا أريد عطفها.

وكانت تبكى فى هذه اللحظة.. ولكنى لم أكن أسمعها جيداً.. كنت أسمعها بأذنى فقط..

ولكنها لم تفقد الأمل.. وسمعتها تقول فى مرارة..

- هذه أول مرة فى حياتى.. يفعل بى رجل ما فعلت..

وضايقتنى هذه الملاحظة.. هل تريد أن تفهمنى أنها كانت مناورة منى..

وعادت تقول فى مرارة:

- كنت أنا التى ألهو بالرجال.. كنت أنا التى أرفضهم.. وأكسر قلوبهم.. ماذا حدث لى..

وأخذتها الكبرياء فجأة فهبت واقفة ثم تركت الغرفة.. وغابت فترة طويلة عادت بعدها بكامل لبسها ووقفت تضع الروج أمام المرآة.. وهى تقول فى جفاف:

- أنا أكرهك.. ومن أنت حتى أحبك.. أنت رجل مثل أى

رجل.. إنى أستطيع أن أعود كل ليلة بحفنة من أمثالك..

ثم ضحكت ضحكة رنانة وأردفت:

- هل صدقت حينما قلت لك أنى أحبك.. إنى أضحك عليك.. وتلك عاداتى دائماً حينما أريد أن ألهو.. فأنتم لا يعجبكم إلا الكذب.. لأنكم أنتم أيضاً كذابون وعواطفكم كاذبة..

وسكتت فجأة لتقول:

- أتظن أن هناك فى الدنيا شيئاً اسمه حب..

وأجبت فى إخلاص:

- لا أدرى..

- هناك ليال كتلك التى قضيناها معاً.. يذهب بعدها كل واحد إلى حاله.. ولا يوجد شىء غير هذا.. أما بقية الأشياء التى يرويها الناس فهى أكاذيب.. الوعود أكاذيب.. العواطف أكاذيب.. الإخلاص كذبة تستعبدوننا بها لنكون لكم طول حياتنا ثم تلعبون أنتم على كيفكم..

وأحسست أنها عادت فأصبحت فاطمة.. التى عرفتها.. وأحسست أيضاً.. أنها تكذب.. وأنها أيضاً كانت تكذب.. وأنها دائماً تكذب..

وإن هذا الشىء غير الحقيقى فيها هو الذى ينفرنى..

وإن هذا الشىء هو المسافة الشاسعة التى ظلت قائمة بيننا..

والهوة التى لم تستطع لذة الجسد أن تعبرها لتوثق بيننا أواصر الحنان والمودة.

ونظرت إليها.. هذه المرة فى عطف.. فقد كانت هى الأخرى مسكينة.. وكانت تمشط شعرها فى المرآة.. وتمضغ اللادن فى صوت مسموع.. وتطرقع بأسنانها وهى تمضغ.. لتحدث صوتاً..

وكان سكوتنا ثقيلا كريهاً.. وكان يشوش على آذاننا أكثر من الضجة..

وقمت من الفراش.. وبدأت أرتدى ثيابى..

وحينما نظرت إلى المرآة.. لم يعجبنى وجهى.. كان يبدو بليداً وتذكرت اللحظة التى دخلت فيها منذ ثلاثة أيام حينما نظرت إلى وجهى فى نفس المرآة.. وكان يبدو مشحوناً بشىء آخر.. أمل.. أو حلم.. أو نشوة.

كان أجمل بكثير من الآن.

ونظرت إليها.. كان وجهها هى الأخرى معتماً..

واتجهنا إلى الباب فى وقت واحد..

كان كلانا يشعر برغبة فى الخلاص.

وعند الباب تصافحنا فى برود.

ثم تبادلنا نظرة طويلة.. هى مزيج مختلط مشوش من كل المسرات والآلام التى احسسنا بها طيلة هذه الأيام الثلاثة..

وبقينا لحظة صامتين..

ثم انصرفت مسرعة..

وخرجت لأمشى بدون وجهة.. وأنا أشعر فى داخلى بحرية لا نفع لها..

وتذكرت ميعادى مع الخواجة مترى.. التاجر العجوز فى البورصة..

ونظرت إلى ساعتى.. كان باقياً على الميعاد نصف ساعة.. ومشيت فى هدوء فى طريقى إلى البورصة..

ترى ماذا يريد منى الخواجة مترى..

وفى البورصة كان مترى واقفاً ينظر فى ساعته بعصبية وينظر إلى الباب.. وحينما رآنى تهلل وجهه وأخذنى تحت إبطه.. وخرجنا..

وسألنى عن مشاريعى وعن حال الزراعة والأرض فى الصعيد.. وقلت..

- الأحوال بخير يا خواجة..

فضحك وهو يجاوبنى..

- أنت دائماً تنادينى يا خواجة.. الظاهر أنك تعتقد أنى خواجه صحيح..

- إن مظهرك خواجة فعلا..

واستغرق فى الضحك ثم أردف:

- يا حبيبى أنا صعيدى ابن صعيدى.. يظهر أنك لم تذهب إلى الصعيد أبدًا.. إنهم هناك يسمون الذى يلبس بدلة خواجة.. لقد عشت فى الصعيد أربعين سنة.. ولى ذكريات مع والدك حينما كنا نكافح معا هناك أيام الشباب..

وأخذنى إلى مكتبه.. وأشعل سيجاراً.. وبدأ يتكلم فى نبرة جادة.

- لقد استدعيتك لأعرض عليك فكرة مشروع نشترك فيه معاً. إنى أفكر فى افتتاح مكتب للتصدير والاستيراد برأس مال ثلاثين ألف جنيه.. ما رأيك..

ولم أجاوب.. وإنما أخذت أفكر وقال هو..

- طبعا أنت فرحان بالفدادين التى ورثتها.. وكل همك أن تنام عليها مثل كل الأعيان.. اسمع كلامى إن الأرض لم تعد وسيلة للمكسب إن مكسبها الآن تعبان.. وخصوصاً لمن يؤجرها مثلك.. إنى أعرف الصعيد وأحواله.. إننا الآن فى سنة ٥١ والأزمة فى قمتها.. الفلاح يستأجر الأرض الآن ولا يسدد شيئاً من إيجارها لسبب بسيط أنه مدين بكل شىء.. مدين بسقى الأرض لصاحب وابور الماء ومدين بتسميدها لوكيل شركة عبود ومدين بزراعتها لبنك التسليف حتى محصولها باعه سلفاً بالبخس للمرابى على سلفة عشرة جنيهات يعيش بها.. وفى النهاية وبعد كل هذا

الكدح يكسح النيل زراعته ويغرقها.. ماذا تستطيع أن تفعل أنت أيها المالك مع مثل هذا الفلاح.. إن كل ما تقدر عليه هو أن ترفع عليه قضية إخلاء.. ثم تأخذ حكما بالإخلاء.. ثم لا يجد الفلاح حلا ـ سوى أن يطلق عليك الرصاص.. أو يستأجر عليك الخط وعواد.. وهذه آخرة الأرض.. ومشاكلها..

إنك لا تعرف الفلاح فى الصعيد.. إنه مازال يستشير حمارته كل يوم وهو ذاهب إلى السوق.. ويسألها هل يبيع القمح أم لا يبيعه.. فإذا رفست برجلها.. عاد أدراجه ولم يبع شيئاً..

وأنت تريد أن تضع رزقك وعمرك وأرضك فى يد هذا الفلاح.. وتنتظر أن تصبح غنيًّا.. كلام فارغ.. اسألنا نحن.. نحن جربنا من قبلك كل هذه الأشياء.. إن سر الغنى فى التجارة.. وليس فى الزراعة.

- وماذا تريدنى أن أفعل.

- تتخلص من هذه الأرض النحس وتشتغل معنا فى المكتب.

- وإذا لم نجد شيئاً نصدره أو نستورده.. وأنت تعلم ظروف التجارة الخارجية وقيودها..

فضحك ضحكة صفراء.. وقال:

- نبيع أذونات الاستيراد نفسها.. ونتاجر فيها.

فقلت فى تردد:

- ألا يعتبر هذا عملا غير قانونى؟

فضحك ضحكة أكثر اصفراراً وأردف..

- وأى شىء حولك قانونى.. إن كل شىء غير قانونى.. إن المال الذى تعيش منه غير قانونى..

إن المائة فدان التى ورثتها عن المرحوم والدك.. كان شراؤها على يدى. وكانت نقودها من ألاعيب البورصة التى قمنا بها بالاشتراك مع سماسرة فاروق وانتهت بإفلاس أكبر البيوتات التجارية. والحكاية كانت لها صدى فى كل الجرائد.. ولم تكن قانونية بالمرة.. لقد كتبنا عقوداً بأكثر مما نملك من أرصدة قطنية. وهذا تزييف.. وهكذا ارتفعت الأسعار بالكذب.. وكسبنا ألوف الجنيهات والفدادين.

ويظهر أنه لاحظ الحرج الذى بدا على وجهى فأسرع يقول:

- وهذا حال التجارة دائماً.. ليس فى التجارة شىء اسمه قانون.. التجارة فى حقيقتها هى تنظيم النصب.. والإثراء بعقد الصفقات على الورق فقط بدون شقاء.. وبدون عرق..

حينما يكون لك مكتب استيراد وتصدير فإنك سوف تشارك فى ربح المصنع وربح الدكان.. دون أن تعمل شيئاً أكثر من أن تجلس على مكتبك وتحرر عقوداً.. أليس هذا أفضل من المناكفة مع الفلاحين المعدمين فى الصعيد.

إن النصب فى كل مكان حتى فى الزراعة.. وأنت حينما تقاضى فلاحاً مديناً لا يملك سوى ذراعيه وتخرجه من أرضك.. ألست نصاباً ؟!

إن النصب فى كل مكان.. يظهر أنك جديد على أمور الدنيا.

إن الدنيا يا حبيبى نصب فى نصب.

فكر فى المشروع الذى عرضته عليك.. لقد كنت أحب أباك وأتفاءل بالعمل معه.. وأنا أريد أن أتعاون معك.. سوف أتركك يومين ثم أكلمك مرة أخرى..

وصافحنى.. وأوصلنى حتى الباب..

وخرجت.. وكل شىء يدور فى دماغى كالدوامة.

وكان الحديث القصير الذى تبادلته مع الخواجة مترى صدمة لأعصابى.

فقدت الكثير من ثقتى.. وإيمانى.. دفعة واحدة.

وأحسست بالقسوة الشديدة..

كان كلام الخواجه مترى فيه قسوة.. سودت الدنيا فى وجهى.

كان فيه اتهام لوالدى.. ولثروتى.. وللنعمة التى أمرح فيها. لا فائدة.. الدنيا نصب فى نصب.. تماماً كما تقول فاطمة..

هل صحيح أن الدنيا نصب فى نصب..؟

الحق أنى لم أجد حجة أقيمها على كلامه.

أنا نفسى كنت أقوى إثبات لهذا الكلام.. فمنذ ثلاثة أيام وأنا أخون زوجتى مع امرأة لا أحبها بدون سبب واضح..

ومع هذا فقد كنت أشعر أن كلامه كذب.. كذب.. الدنيا ليست شرًّا كلها.. ولا أنا شرير كلى..

القلق يهزنى فى داخلى.. أنا أتعذب..

كلنا نتعذب.. ونبحث عن حل على قدر فهمنا..

وذهبت إلى بار ماسبيرو.. وطلبت كوباً من النبيذ. وكانت الوجوه حولى تثبت لى أننا جميعاً مساكين.

كان كل واحد يحملق فى الهواء.. كأنه يطارد ذبابة وهمية.

وجلست أحصى الزجاجات على الأرفف، وأحصى الوقت الذى تستغرقه الزجاجة لتفرغ.. وأحصى فى دماغى عدد الشوارع وعدد البارات.. وعدد سكان القاهرة.. وعدد سكان العالم.. وما يشربه الناس من السم كل ساعة..

وكانت نتيجة الإحصاء مضحكة.. خمسة ملايين زجاجة ويسكى يشربها سكان العالم كل ساعة..

ألا يبعث هذا على الإشفاق.

وأخرجنى البارمان من تصوراتى.

وهو يملأ كوب النبيذ قائلا:

– أتعرف مم يصنعون هذا النبيذ الفاخر. لقد رأيت العنب

بنفسى فى بوردو. كل حبة مضيئة.. كأن الشمس معبأة فى داخلها..

- أنا لم آت هنا لأشرب الشمس.. لقد جئت لكى آخذ ضربة على رأسى.. أبحث لى عن نبيذ آخر مصنوع من الصرم القديمة.

وضحك البارمان وقرب منى صحنا به جامبون.. وهو يهمس:

- وهذا جامبون طعمه كطعم القبلات..

ووقف ثلاثة من الشحاذين يعزفون البيانولا أمام البار وبدأوا يلعبون.. ويصرخون.. ويضحكون.. ودخل أحدهم يجمع القروش فى قبعته وكان وجهه مدهوناً بالسيبداج وعليه لطعتان حمراوان: وكان فمه يضحك.. ولكن عيناه كانتا حزينتين جدًّا.

وكان طعم الجامبون ألذ من طعم القبلات فى فمى.. وكانت الموسيقى سخيفة. ولكنى طلبتها مرتين حتى تصدعت رأسى.. وكان البارمان واقفاً أمامى يلوى شفتيه فى اشمئزاز.

- ما الذى يعجبك فى هذه الدوشة..

- إن مفعولها أسرع من مفعول نبيذك الفاخر..

- إنك لن تعرف طعم نبيذى وأنت تشربه هكذا وحدك على أنغام البيانولا.. أنت فى حاجة إلى غادة هيفاء عيونها سود.. تنظر إليك وتنظر إليها.. وإلى شىء هنا فى قلبك يأكله من الداخل.

- حينما يكون هناك شىء فى قلبى يأكله.. فإن كل شىء

أشربه سوف يتحول إلى نبيذ.. سوف تكون المياه العادية نبيذًا.. لن أكون فى حاجة إلى من يعصر لى عنب بوردو ويعبئ لى الشمس فى زجاجات. سوف أكون أنا الشمس التى تشع فى كل الزجاجات.. أحمد ربنا ياخواجة على أن قلبى فارغ.. وإنى آكل بعضى. فلهذا جئت إليك.. ولهذا يأتيك الزبائن كل يوم. وتجد رزقك..

- أنت فيلسوف يا أستاذ حلمى.

- أتظن ذلك..

- وهذا مفعول نبيذى أيضاً فهو يصنع فلسفة فى المخ.. إن كل الفلاسفة متخرجون من عندى..

وجرعت الكوب دفعة واحدة.. والظاهر أنى كنت أريد أن أتخرج بسرعة.. واختفى البارمان.. ونسيت أن أسأله.. أين يذهب المجتهدون فى الشرب.. هل يصبحون أساتذة فى الفلسفة.. أم يصبحون مجانين..

وكان فى الركن رجل عجوز أمامه زجاجة براندى كاملة.. وكان يتحرك بصعوبة.. ويسعل سعالا جافًا.. ويصب فى جوفه الكأس بعد الأخرى..

وحينما كنت أعود فى المساء إلى بيتى.. ويداى فى جيوبى.. كنت أسأل نفسى.. ما الذى يجعل هذا العجوز يجلس كل يوم ويفرى كبده هكذا.

وكنت أرى فى الظلام وجهه الترابى المريض.. وأسمع سعاله الجاف وأتذكر كلام الخواجة مترى.. بأن كل الناس وحوش.. يفترسون بعضهم البعض.. ولا أصدقه.. لا أصدقه أبداً..

إننا نقتل أنفسنا..

نحن مساكين..

ودخلت البيت.. وغمرنى الضوء الشديد فى الصالة.. واستقبلتنى زوجتى متهللة.. وسألتنى عن حالة الزراعة فى البلد..

وتذكرت أنى كذبت عليها لأتغيب هذه الأيام الثلاثة.. وأجبتها وأنا أتجنب النظر فى عينيها..

- كل شىء على ما يرام..

- وماذا فعلت مع علوان..

- ومن هو علوان هذا؟

- الرجل الذى أحرق الذرة.. لقد حسبت أنك حضرت الحادثة..

لقد وصل خطاب من البلد وفتحته على أمل أن يكون خطاباً منك، ولكنه كان من ناظر العزبة يروى فيه ما حدث من علوان.. وحادث إحراق الذرة..

فقلت بارتباك:

- آه.. هذه الحكاية.. لقد سووها حينما وصلت والحالة الآن هادئة تماماً..

وقالت وهى تضم يديها إلى صدرى..

- الحمد لله.. لقد كنت قلقة عليك..

ولم يبد عليها أنها تشك فى شيء..

وكانت غرفة الاستقبال مضاءة وقالت لى إن مدام عزيز عندنا، وإنها سهرانة عندنا الليلة لأن زوجها مسافر إلى الإسكندرية.. وصاحت: نانى.. نانى.. لقد جاء حلمى..

وخرجت نانى.. وكانت تلبس فستاناً أسود وتضع على كتفيها وشاحاً أحمر، وكان الوشاح الأحمر يلمع على جسمها الصغير كأنه فص من العقيق..

وتصافحنا.. وعادت إلى مقعدها وكان فى يدها بلوفر تشتغل فيه.. وكانت تنحنى على التريكو وهى تعمل ويتدلى شعرها كالبارافان فيخفى وجهها..

ومن حين لآخر كانت تمد يدها وتزيح شعرها فتبدو أهدابها الطويلة تختلج فى اضطراب..

وكنت أحس وأنا أنظر إلى أهدابها أنها تفكر.. وأن عقلها يضطرب وراء تلك الأهداب..

وقلت لأخرجها من صمتها..

– لقد سمعتك تعزفين البيانو كأعظم موسيقية فى الدنيا.

فرفعت رأسها الصغير وابتسمت وتورد خداها.. ونظرت إلى فى امتنان.. ولم تتكلم..

وقالت زوجتى:

– إنها ترسم أيضاً.. ولها أشغال كانفاه رائعة.. إنها فنانة انظر هذا مفرش اشتغلته لنا.

– رائع.. رائع.. أين تجدين الوقت لعمل هذا كله؟ وصمتت نانى لحظة قبل أن تجيب ثم قالت وهى تنظر إلى الأرض..

– ليس فى الدنيا شىء أكثر من الوقت.. إن لدى دائماً وقتاً طويلاً.. طويلاً.. أريد أن أتخلص منه.

ورفعت رأسها لتنظر إلى نظرة خاطفة ثم عادت تعمل فى سرعة وعصبية.

ولكن هذه اللحظة كانت كافية لأن أرى عينيها..

أرى الوحدة.. والغربة.. والاستسلام الحزين الكامن فيهما.

وكانت تتكلم بصوت خافت كأنها تكلم نفسها.

ولم أعرف ماذا أقول بالضبط.

ولكن كنت أتمنى أن أسمعها تتكلم أكثر.. ولكنها صمتت وعادت إلى التريكو..

وقامت زوجتى لتحضر الشاى..

وقمت إلى البيانو وفتحته.. وبدأت أعبث فى مفاتيحه..

– أجمل شىء فى الدنيا أن يكون الإنسان موسيقيًّا.. أنا كنت طول حياتى أتمنى أن أكون موسيقيا.. كانت هذه أمنيتى وأخذت أعبث برهة ثم قلت:

– ألم تكن لك أمنية.. وأنت صغيرة؟

وفوجئت بهذا السؤال.

– أنا؟!

وترددت لحظة.. ثم قالت فى وداعة وهى تبتسم..

– كنت أتمنى أن أكون ولداً.. فقد كنت أرى الأولاد حولى يفعلون كل شىء.. وأنا والبنات نستأذن لنفعل أى شىء.. حتى إذا أردنا أن نشرب..

وجاءت زوجتى بالشاى.. وأخذنا نشرب فى صمت.. وطلبت من نانى أن تعزف لنا شيئاً..

وجلست نانى لتعزف مقطوعتها المفضلة.. وكنت أقف أمامها متكئاً على البيانو أنظر إلى أهدابها وهى تختلج..

ولفنى النغم فى موجة من الحزن.

وسألتها: لماذا تعزف هذه المقطوعة دائماً.. وبكل هذا الحزن.. فقالت إنها لا تدرى..

ولكنها حينما رفعت وجهها.. كانت عيناها مكسوتين بغشاء رقيق من الدموع..

٥

كانت الشمس تنام إلى جوارى فى شريط دافئ ممدد بطول السرير.. وكنت أغمض عينى وأحاول الاسترسال فى الأحلام الرقيقة التى أحلمها، ولكن الضوء الشديد كان يؤلم جفونى ويدفعنى إلى أن أفتحها.. وأفركها وكانت زوجتى إلى جانبى.. تتكلم كلاماً كثيراً لا أفهمه ثم سمعتها تبكى وتقول بصوت متهدج:

- أنا أعلم أنك حزين من أجل وفاة أبيك.. ولكن ما جدوى هذا الحزن.. منذ شهور ونحن نعيش بعيدين منفصلين كأننا غرباء.. هل أعاد حزننا الحياة إلى الميت..

وأفقت تمامًا على كلماتها.. وتيقظت.. ومسحت على وجهى.. وأنا أفكر فى كلماتها.. كلمة.. كلمة..

هى تعتقد إذن أن عزوفى عنها سببه حدادى على والدى..

ولم أعرف.. هل أفرح أم أحزن.. لهذه الطيبة.. وهل هى طيبة أم غفلة ؟!..

لو علمت زوجتى بكل ما حدث فى الأيام الماضية.. أتظل على طيبتها أم تبصق فى وجهى؟!

وتمنيت فى تلك اللحظة أن أقول لها كل شىء.. وأن أكاشفها بالحقيقة ولكنى جبنت..

ودخلت الخادمة.. وكانت عيناها واسعتين من الرعب..

- سيدى.. سيدى.. البواب بيخبط على شقة عزيز جارنا من الصبح ومفيش حد بيفتح.

- لازم خرجوا..

- مش معقول يا سيدى.. عزيز مسافر والست لا يمكن تخرج الساعة دى..

وقفزت زوجتى من الفراش مرعوبة:

- صحيح.. لا يمكن نانى تخرج فى الساعة دى.

وهرولت إلى الباب.. وأنا أجرى خلفها.. والخادمة تعرج وراءنا.. ووقفنا ثلاثتنا ندق على باب الشقة بأيدينا فى وقت واحد.. ومرت دقيقتان.. وسمعنا صوتاً خافتاً يشبه الأنين.. واصفر وجه زوجتى وابيض حتى أصبح فى لون المنديل الأبيض.. وأخذت تهز الباب فى عنف..

وترامى إلى آذاننا صوت حركة بطيئة.. ثم وقع خطوات تقترب.. ثم تحرك المزلاج وانفتح الباب.. وكانت نانى واقفة.. أجفانها ثقيلة وارمة وتحت عينيها غضون زرق، وهى تنظر إلينا فى دوار النوم.. كأننا خيالات فى أحلامها..

وكان جسمها الصغير يتطوح..

وأخذتها زوجتى بين ذراعيها ودخلنا..

كانت الغرف كلها نظيفة منظمة.. وكل قطعة من الأثاث فى مكانها.. وفى غرفة النوم كانت الأباجورة مضيئة.. وعلى الكومودينو إلى جوار الفراش.. لاحظت أربع زجاجات لأدوية منومة مختلفة.. وكتاب لبلزاك مفتوح على الصفحات الأخيرة..

وكان من الواضح أنها تأخرت فى النوم وتعاطت دواء منوماً لتعالج الأرق.. فنامت والأباجورة مضيئة.. إلى هذه الساعة من الصباح..

وهذا كل ما حدث..

وأفرخ رعبنا..

وجلست إلى جوارها ألتقط أنفاسى.. وأنا أشعر بالحرج.. لقد سرقت منها النوم الذى توسلت إليه بالأدوية..

وذهبت زوجتى لتعد كوباً من الشاى..

وقمت أنا إلى النافذة.. ألوذ بوحدتى من إحساس ثقيل بالذنب.

كنت أفكر فى الأربع زجاجات من الأدوية المنومة.. وأنا أقود عربتى بسرعة فى عصر ذلك اليوم.. وفى المقعد الخلفى كانت تجلس زوجتى.. وابننا ونانى.. وكنت أسمع نانى تضحك وهى تداعب ابنى.. وأشاهد صورتها فى مرآة العربة.. وشعرها المرتب فى بساطة. وعينيها العميقتين جدا.

وجلسنا فى كازينو على النيل.. وكان النيل فى الفيضان.. والمياه عالية كبطن الحامل..

وكنت أشعر بالسعادة وأنا أنظر إلى المياه الحمراء وهى تجرى وتجرى كأنها دم فى العروق يتجدد كل لحظة..

وكانت الشمس تميل إلى المغيب.. والألوان تتغير بسرعة، وتأخذ معها وهج النهار.. وتغطس فى بحيرة رمادية..

وكانت العمارات على الكورنيش تنطمس رويداً رويداً، وتذوب فى ذلك المخمل الرمادى.. فلا يبقى منها إلا مساحة طويلة بطول الشاطئ.. مساحة قاتمة بلا معالم..

وكنت أفيق من الخدر الذى يبعثه اللون الرمادى فى حواسى على صراخ ابنى وهو يجذب أمينة من ثوبها ويشاور بيده الصغيرة إلى المراجيح فى آخر الكازينو.

وأخذته أمينة.. وذهبت به إلى المراجيح.. وهو ينط ويقفز.

وبقيت وحدى مع نانى.. وكنت أنظر فى عينيها وهما يزدادان اتساعاً مع الغروب كعيون القطط.. ويبعثان فى نفسى أكثر وأكثر.

ذلك الإحساس الغامض بالعمق.. وكنت أفكر فى زجاجات الأدوية المنومة على الكومودينو.. وسألتها فجأة:

- هل تتعاطين منوماً على الدوام؟

- أحياناً.. حينما يطول بى الأرق..

- ولماذا يطول بك الأرق؟

وسكتت ونظرت فى وجهى مترددة وقلت مشجعاً:

- ليس هناك فى الدنيا شىء يستحق أن نهتم به.. كل شىء ينتهى.. الماضى يفوت.. والحاضر يفوت.. وأسوأ مستقبل مثل أحسن مستقبل يفوت هو الآخر.. فيم القلق والأرق؟ ولماذا نهتم بأى شىء؟

- أنت تتكلم كرجل عمره مائة سنة.

وعادت تنظر فى وجهى برقة وتردف..

- ومع هذا فأنت تهتم.. وتقلق.. من أجل أشياء كثيرة صغيرة أحياناً.. أليس كذلك؟؟

- نعم.. أحياناً.. لا أنكر..

- أترى أنه لا فائدة من الحكمة..

- بل لا أحب أن تتعذبى مثلى.

- أهو اهتمام آخر.. هل أنصحك أنا أيضاً.. وأقول لك إن الماضى يفوت.. والحاضر يفوت.. وكل شىء يفوت.. ولا داعى

للاهتمام والقلق لأى شىء أو لأى إنسان؟

وسكتت حينما رأتنى مستسلماً حزيناً..

كنت فى الحقيقة محتاجاً إلى هذه النصيحة أنا الآخر.. وكنت أواسى نفسى بلا جدوى.. وضحكت..

ولمعت عيناها على نبرة اليأس فى ضحكتى ونظرت إلى.

كانت تبادلنى نفس الإحساس المرير بالحيرة..

- ماذا نريد بأنفسنا؟

- نعم ماذا نريد بأنفسنا..

وأردفت فى حرارة دون أن تفكر:

- أنا أريد أن أحيا..

- وحياتك التى تعيشينها..؟!

- حياتى!!.. أى حياة تقصد.

وسكتت فى يأس.. ولمعت عيناها بغشاء رقيق من الدموع. ثم قالت فى صوت خافت:

- ربما أطلعتك على حياتى يوماً ما.. إنى أكتبها.. أحياناً أكتب من فرط اليأس.. وأحيانا من فرط الوحدة..

وتأرجحت على شفتيها ابتسامة واهية..

وكان يبدو عليها أنها تفكر وأنها مترددة..

وتلاقت نظراتنا.. وكأن شيئاً ما يشدنا إلى بعض.. ولم نتكلم.

وقطع صراخ ابنى صمتنا.. وكان يجرى نحونا وينط ويقفز.. ومن ورائه أمينة.

وجلست أمينة.. وجلس ابنى إلى جوارها.. وارتفع صوت الملاعق وفناجين الشاى.. وثرثرة الطفل.

ولكنى ظللت مشدوداً إلى نانى طول الوقت.

ولم يتغير الأمر كثيراً حينما عدت إلى البيت..

وحينما استغرقت فى أعمال مكتبى لعدة أيام متوالية لم يتغير الأمر كثيراً.

ظللت مشدوداً طول الوقت بحبال خفية.. بدنيا أخرى غير دنيا عملى اليومى ومصالح الطعام والشراب وثرثرة كل يوم.. هى دنياها.. وجودها..

ظلت ماثلة أمامى حاضرة فى ذهنى طول الوقت.

وحينما ألقيت بنفسى فى فراشى آخر الليل كنت أسأل نفسى أية رابطة من حديد تربطنا.. وأتذكر علاقتى بفاطمة.. إن الأمر مختلف تماماً.

إن وجود نانى إلى جوارى يفتح لى عالماً أليفاً أمشى فيه.. أمشى.. أمشى.. ولا أتعب.

أشعر بروحى تصادقها وتأوى إليها كما تأوى إلى ظل شجرة بدون هدف.. بدون غاية.

وأشعر بالأغوار العميقة خلف عينيها. تنكشف لى عن إحساسات أعانيها.. وآلام أعيشها وأعرفها.. وكأنى أدخل بيتى.. وأتجول فى غرفتى.. وأجلس تحت ضوء مصباحى الأخضر..

أشعر برغبة فى الإفضاء.. وإفشاء مكنونى إليها.. وفض أسرارى بين يديها.

ويخيل إلى أحياناً أن بعض كلماتها تصدر عنى.. وكأن الحاجز الذى يفصلنا سقط. وانفتحت فيه ثغرة نتصل منها ونتخاطب ونمتزج.

إحساس غريب يخيم عليه الأمان.. لا تستعجلنى فيه رغبة.. وإنما يتصل فى نهر من الحنين دائم الجريان.

هل كنت أجسم لنفسى هذه المشاعر وأنا نائم بالليل؟؟

هل كنت أحلم وأتخيل؟

لا أدرى..

ولكنى حينما تيقظت فى الصباح كنت أحمل هذه المشاعر معى إلى مكتبى.. وأعود بها إلى البيت.. وأنظر بها فى صندوق الخطابات.. وأنقب وأفتح كل الخطابات بلهفة.. وأبحث عن إمضائها. وقد استولى على شعور بأنها لابد مرسلة الأوراق التى تكتبها عن حياتها لأعيش معها.

كنت أريد أن أعيش حياتها معها.

كان الخواجة مترى يتحدث فى التليفون بلهجة انتصار.. وحينما وقفت فى النافذة أنتظره.. رأيته ينزل من عربة كاديلاك آخر موديل ويقتحم المكتب.. ثم يقف.. ويمتشق قوامه ويتلفت حوله بنظرة ظافرة ويهتف.

– ما رأيك الآن يا أستاذ.. لقد رفضت أن تشترك معنا فى مكتب الاستيراد.. وهذه أول خبطة لنا بعشرين ألف جنيه. ما رأيك تعال افتح دفاترك وقل لى ماذا كسبت من زراعة البصل فى هذه المدة بصراحة؟

ولم أنكر أنى لم أتلق مليماً واحداً من البلد..

ولم أنكر أن المكتب الهندسى الذى أديره فاشل.

ولكنى أنكرت بشدة أنى نادم.. وأنى شاعر بأن نصف عمرى قد ضاع.. فأنا غير مقتنع بالعمل الذى يعمله وأنا مازلت غير مقتنع به وليست لدى فكرة المساهمة فيه والحكاية ليست حكاية فلوس.

– الحكاية ليست حكاية فلوس.. أشكرك. هل تسمح وتتنازل لى عن فلوسك.. وأرضك وأطيانك وتستريح من عنائها.. وتعيش سعيداً بثقافتك.. ما هى الحكاية إذن يا صديقى؟

– الحكاية هى أن أعيش كما أشتهى.. أكسب على طريقتى.. وأعمل العمل الذى أقتنع به.

– وهل أنت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد؟

ولم أجب..

وقال الخواجة مترى:

– أنا أكلمك كأخ كبير وصديق حميم للمرحوم والدك. أنا لا تعجبنى أحوالك، ولو تركت نفسك فى هذا الطريق فسوف تصبح على الحديدة بعد سنوات.

وخبطنى على كتفى قائلا:

– اسمع ما زالت أمامك فرصة للاشتراك معنا.. فكر.. أنا لا أريد أن أخسرك كشريك.. أنا أثق بك وأحبك.. اسمع كلامى.. الأرض نحس.. اخلص منها.. أنت لم تخلق للزراعة..

وخرج مترى.

وحينما كان يدخل فى عربته الكاديلاك الفارهة.. وأنا أنظر إليه من النافذة.. كانت كلماته مازالت تقرع أذنى..

هل أنت مقتنع بزراعة البصل فى الصعيد؟ هل أنت مقتنع بالفلوس التى تخسرها كل يوم فى المكتب؟

والحقيقة أنى لم أكن مقتنعًا بأى شىء من هذا.. أنا لم أخلق لهذه الأشياء.. لم أخلق للزراعة ولا للتجارة..

والحقيقة أنى لم أكن أعرف لأى شىء خلقت؟

ولم أكن أعرف ماذا أريد بنفسى؟

لم أكن أعرف إلا مقدار خمس دقائق من مشوارى الطويل الذى أسميه الحياة، هى وقوفى الآن فى مكتب هندسى فاشل لا أمت إليه بصلة..

وأغلقت دفاترى وأغلقت النافذة. ثم أغلقت الباب بعدم اكتراث ونزلت السلم.. وتركت نفسى أضرب فى الطريق من شارع إلى شارع فى مشية متراخية إلى بيتى.

وتلقفتنى الخيالات التى كانت تصاحبنى منذ الصباح.. وتذكرتها وتذكرت عينيها.. وتلهفت على حديثها.

وحينما وصلت إلى البيت.. كان أول شىء نظرت إليه هو صندوق البريد.. وهناك كانت حزمة من الأوراق تنام فى الصندوق وعليها اسمى وعنوانى.. وقفز قلبى بين ضلوعى.. وانتزعتها فى لهفة وصعدت السلم وثباً.. ثم دخلت غرفتى وأغلقت الباب خلفى: وفتحت الأوراق.. كانت منها، وكانت مكتوبة بالقلم الرصاص فى عجلة وانفعال:

وألقيت بنفسى فى مقعدى: وبدأت أقرأ..

* * *

أول شخص أعى عليه هو شقيقتى الكبرى والوحيدة.. وأول حادث أذكره هو حادث بين أختى وزوجها.. كل منهما يشتم الآخر ويلوح بيديه فى غضب.. ثم أختى مغمى عليها.. وأنا أصرخ بأعلى صوتى.. وسكان العمارة يهرولون لإسعافها.. وكان ذلك فى قنا مقر

عمل زوج أختى مأمور الضرائب الذى يكبرها بثمانية عشر عاماً..

وبعد ذلك وعيت على أبى الطبيب الكبير الذى يخشاه كل فرد فى البيت ويرتجف منه.. وأنا لا أجسر على الوقوف أمام المرآة لأمشط ضفائرى خوفاً منه.. فأدخل الحمام وأغلق بابه من الداخل وأسرح شعرى وجو البيت الملىء بالممنوعات.. ممنوع من الخروج.. ممنوع الوقوف فى البلكون.. ممنوع الذهاب لمنزل خالى إلا بصحبة أحد إخوتى.. ممنوع الذهاب إلى السينما.. والسينما لم تكن ممنوعة فقط ولكنها كانت حراماً.. لأن أبى شاهد مرة فيلما عربيًّا.. وكان رصاصة فى القلب.. فخرج ساخطاً من نصف الفيلم وأخرجنا معه لآن البطلة التى كانت مخطوبة أحبت شخصاً آخر غير خطيبها، وسمحت لنفسها فى يوم عقد قرانها أن تختلى بحبيبها فى الشرفة تبوح له بحبها.. وهنا ثارت ثائرة أبى.. وظل يلعن السينما والمبادئ التى تنادى بها.. واختتم ثورته بأن حرمها علينا..

ولكنه بالرغم من شدته وصرامته.. كان طيباً حنوناً يمرض إلى جوارنا إذا مرضنا.. ويبكى لبكائنا.. ويطعمنا بيده. ويغنى لنا.. على عكس أمى الجافية القاسية وهى تخرج وتدخل على كيفها.. لا تشغلها إلا شئونها ونزواتها وثيابها وزياراتها وصديقاتها ولا يهمها إن كنا نموت أو نعيش.

وأذكر مرة.. بل عدة مرات.. دعواتها بأن يأخذنا الله.. اثنين.. اثنين.. أي والله.. كانت تصرخ بأعلى صوتها.. لو كان ربنا يريحنى وياخدكو.. إلهى يجينى خبركو.. وتطلعوا كل اتنين فى خشبة!!

لن أنسى هذا اليوم.. ونحن ينظر بعضنا إلى بعض فى صمت ونرمقها فى كراهية..

وكانت أمى هى الصخرة التى تتحطم عليها صلابة أبى وشدته.. كان يقضى النهار فى الصراخ والشجار معها.. فإذا احتواهما الفراش بالليل ذابت ثورته، وذاب شجاره وتحول إلى حمل وديع، تهدهده على صدرها وتأمره وتلهو به كيف شاءت..

وكنا نعلم نحن الصغار.. أن أمى تلهو بأبى.. وتمشى على كيفها..

كنا فى أشهر الإجازة الصيفية نسافر كلنا إلى العزبة ويبقى والدى فى القاهرة للعمل فى عيادته..

وفى العزبة كانت أمى تمرح على كيفها مع عمى العمدة الوارث الجميل الذى لا عمل له سوى ركوب الخيل، وإطلاق النار فى الهواء واصطحاب أمى بالليل والنهار.. وضحكاتهما ترن فى الحقول.. وخلف الأبواب المغلقة بالليل..

وكنا نرى ونسمع ونسكت.. ولا يخطر على بالنا أن أبى يعلم من هذا الأمر شيئاً.. حتى فوجئنا بعد سنوات بخناقة تهتز لها أرجاء البيت، وأبى يصرخ بأنه سبق أن نبهها إلى سلوكها المشين

فى العزبة فلم ترتدع وتمادت فى علاقتها الآثمة.. وإنه لا يجد أمامه وسيلة الآن إلا الطلاق، الطلاق فى سكون حتى لا تضار سمعة العائلة.

وكان معنى هذا الطلاق أن تظل أمى كما هى فى البيت.. ويزورنا هو كالمعتاد فى أيام إجازته على ألا تقع عيناه عليها.. ويكتفى بحرمانها من الميراث والمعاش.. حفظًا لكرامته..

وكان هذا يعنى فى نظر أمى أشد عقاب يمكن أن ينزل بها.. وأنه لأهون عندها أن تحرم من بيتها، ومنا ومن سمعتها على أن تحرم من ميراثها.. فلم يكن لها هم سوى جمع المال من أى طريق.. ولو أنها وجدت سوقاً لتبيعنا فيه لباعتنا بأبخس الأثمان..

وبالطبع انتهت حكاية الطلاق كما تنتهى خناقات كل يوم بمجرد الدخول إلى غرفة النوم.. وصافى يا لبن.. حليب يا قشطة.. واللى كان.. كان..

وتحول الأسد إلى حمل وديع بعد أول قبلة.. وانتهى كل شىء.. وعادت المياه إلى مجاريها..

كان هذا هو حال أبى المسكين مع أمى.. وحاله معنا.

وكنا نغتفر له ضيق صدره وعصبيته لأننا نعلم قلة حيلته.

وأحياناً حينما كان يجمعنا حوله ليحكى لنا القصص.. كنت أرى عينيه تتندى بالدموع.. وهو ينظر إلينا.. ويضمنا إلى صدره..

وكان فى تلك اللحظات يغير موضوع الحديث.. ويبدأ فى إعطائنا درساً فى الوطنية.. ويغنى لنا.

يا مصر يا أم الدنيا حبك فى القلب سكن..

ونحن نغنى معه.. وهو يدير وجهه إلى الخلف ويمسح دموعه..

كم أحببت أبى.. كم أحببته.

وبلغت السادسة عشرة فى فبراير وبدأ أبى يلوح بوجوب امتناعى عن الذهاب إلى المدرسة وبقائى فى البيت.. ولم تمانع والدتى على شرط أن يوافق أبى على زواجى..

وتقدم لى فى هذه السنة ضابط شاب يكبرنى بعشر سنوات يتيم الأب والأم، له إيراد خارجى غير وظيفته مستقيم لا يشرب الخمر، ولا يلعب القمار وسمعته فى عمله نظيفة.. فقبله أبى وجاء به لرؤيتى.. ورأيته شخصاً عادياً ليس فيه شىء يلفت النظر.. أما هو فقد أعجب بى جدا.

وامتدح جمال وجهى وعينى وشعرى الأسود الطويل، وفمى الصغير وأسنانى المرصوصة.. ويوم ألبسنى الدبلة لم يفته أن يبدى إعجابه بأناملى وبطريقة عنايتى بأظافرى..

وكنت سعيدة بإطرائه لجمالى.. فهذه أول مرة أسمع فيها أنى جميلة جذابة.

وداعبتنى الآمال.

في المستقبل سوف أستطيع الذهاب إلى السينما.. وسوف أستطيع الضحك والغناء بصوت عال على كيفى.. وتسريح شعرى في المرآة، ووضع الأحمر على شفتى.. والخروج إلى الشارع.. والذهاب إلى المصيف ونزول البحر.. والسفر.. والسهر وألف متعة.. ومتعة..

وجلس خطيبى يتحدث مع أخى.. وفهمت من حديثه أنه ينتظر الترقية.. وأنه ينتظر أن يعاونه والدى كطبيب كبير متصل بالسراى.. وأنه يعلق زواجه على هذا الشرط..

وسقط فى نظرى.. وسقطت أنا أيضا فى نظر نفسى..

إن الجميلة الفاتنة كانت الترقية.. ولم تكن عيونى..

وكأى رجل عادى يبحث عن صفقة.. كان خطيبى أيضاً يبحث عن صفقة.. ويريد التقرب من السلطان عن طريق الزواج بى.. لم يكن يريد التقرب منى..

وغضبت كطفلة جرحت فى أحلامها ولويت بوزى.. وكرهته.. وكرهت الزواج..

وحدث فى ذلك الأسبوع أن جاءت أختى من البلد غضبانة من زوجها وأصرت على عدم العودة.. فهى لم تعد تستطيع الاحتمال أكثر من هذا.. مع زوج لا تحبه.. ولا تطيقه.. زوج حاد المزاج ضيق الصدر فى سن أبيها..

وقامت القيامة فى البيت.. بكاء وصراخ وتشنجات من أختى..

وصراخ أشد وتهديدات من والدى.. واجتماعات مع خالى تعقد وتفض.

وبعد خمسة عشر يوماً وافقوا على الطلاق على أنه درس فقط يعطونه لزوجها لكى يتأدب.. وفعلا طلقت واشترط زوجها أن يأخذ الأولاد وأن يستكتبها اعترافاً بخطها بالتنازل عن المؤخر والنفقة، وبأنها ليست حاملا وكتبت له ما أراد وألقته فى وجهه..

وانتهت المشكلة ولكنها ما كادت تنتهى حتى انفجرت قنبلة غيرت نظرتنا للأمر كله. فقد تقدم لأختى بعد طلاقها مباشرة مقاول صديق لزوجها ومن نفس البلد.. شاب جميل من سنها.. كان يتردد على البيت بحكم صداقته بزوجها..

وكانت فضيحة.. لم يسع والدى أمامها إلا أن وافق على الزواج ليغطى على الخبر ماجور..

وثار خطيبى وبدأ يلمح بكلام جارح.. وثرت فى وجهه وطالبته بفسخ الخطبة ولكنه رفض.. لا لأنه يحبنى.. ولكن لأن نتيجة الترقيات لم تكن قد ظهرت بعد.

وألححت على فسخ الخطوبة ففسخها، وشعرت براحة عميقة ليست بعدها راحة.

وأذكر فى تلك الليلة.. وأختى نائمة بجوارى.. أنها سألتنى فى حزن وهى تدخل فى حضنى عن رأيى فى زواجها وطلاقها وكلام الناس.. فأجبت وأنا أكذب.. أنت معذورة.. لقد تعذبت بما فيه

الكفاية مع رجل لا تحبينه.. ولولا أن الله يعلم بأنك مظلومة.. لما أرسل لك هذا الرجل لإنقاذك.. والزواج بك..

فتنهدت أختى وقالت:

- آه.. كم تعذبت.. ما أرحم الله.. لقد عوضنى خيراً بعد كل هذه السنين التى صبرتها.. فإنى أعبد زوجى وأشعر من فرط سعادتى أنى أحلم.. وأنى سأفيق على الحقيقة المرة.. أشعر أن قلبى لن يحتمل هذه السعادة..

أبعد هذا الكلام كنت أستطيع البوح لها بما أنا فيه.. ولكنى كنت فى الحقيقة أتألم.. وكنت خجلى.. وكأنى أنا التى أحمل فضيحتها.

وكنت أريد أن أبكى.. وأتكلم.. وأشكو أحزانى.. ولكن لمن أشكو أحزانى.. لأمى ؟!.. وهى عدوتى.. وعارها هى الأخرى على رأسى.. لأبى المسكين ولديه من عذابه ما يكفيه ويكفى العالم.. ؟

لم يكن هناك مفر..

كان لابد أن أتعذب وحدى.. وأحمل آثام هذه العائلة وحدى.. وكانت النتيجة أنى مرضت.. وضعفت.. ونقص وزنى فى شهور إلى أربعين كيلو جرام.. وأصبحت عيناى من فرط هزال وجهى واسعتين جدًّا.. ومخيفتين..

وكان والدى متغيباً فى تلك اللحظة فى مهمة طبية بالمنيا.. وأمى سارحة على كيفها تنط كل يوم إلى العزبة ثم تعود سكرانة تغنى

فى غرفات البيت بصوت أجش مبتذل..

وأنا نائمة فى فراشي.. حرارتى مرتفعة.. ورأسى تكاد تنفجر من الحمى.. وقلبى يطحنه إحساس ذليل يائس..

وبلغنى خطاب من أبى فى ذلك الوقت يصف لى مدى ذعره من حلم رآه.. وهو أنى مريضة طريحة الفراش وحولى أربعة أطباء يفحصوننى.. ثم يرفعون رؤوسهم إلى أبى ويقولون فى نفس واحد.. مفيش فايدة فيصرخ أبى مذعوراً.. ويصحو من النوم ليجد نفسه جالساً فى فراشه والدموع فى عينيه..

ولم يصدق أنه كان يحلم.. فقام لفوره ليكتب إلى يسألنى عن صحتى ويستحلفنى أن أرد فوراً وبخط يدى..

وفعلا كتبت له فى الحال.. وكنت متأثرة جدًّا فظللت أبكى طول النهار وطول الليل ولم يغمض لى جفن وأنا بين إحساس عنيف بالحزن، وإحساس عنيف بالسعادة.. بالحزن على نفسى وبالسعادة لأن أبى يحس بى ويشعر بى إلى هذه الدرجة.

وفى الصباح فتحت عينى على صوت أبى وقد جاء فى أول قطار.. وسمعت لهاثه وهو يصعد الدرج وينادى بصوت عالٍ وبلهفة.. نانى.. نانى.

وجريت وفتحت الباب.. فتلقفنى فى حضنه وظل يقبلنى ويبكى.. وأنا أبكى.. وأضع رأسى الصغير على صدره.. فيهدهدنى كفرخ الحمام.

يا أبى.. يا حبيبى.. يا ملاكى.. يا إلهى الرحيم..

عرفت فى تلك اللحظة لماذا لا يطلق أبى أمى على ما يعلمه من إثمها لماذا تشل يده كلما رفعها ليهدم بيته؟ لماذا يضعف ويفقد المقدرة ويصبح كالطفل السليب الإرادة؟ لأنه يحب أولاده وبيته.. لأنه يحبنى..

وغفرت له ضعفه.. بل لقد أحببت ضعفه.. وعشقت ضعفه..

ألست أنا ضعفه؟!! أنا..

وبدأت الأقدار تنسج لنا أحزاناً جديدة..

أنجبت أختى من زوجها الجديد بنتاً.. وبعد سنة حملت مرة أخرى ثم أجهضت.. وبعد الإجهاض بشهور ظهرت عليها علامات سرطان بالثدى برغم أنها كانت فى أوج شبابها ولم تتعد الثلاثين..

وأجريت لها عملية استئصال للثدى.. وقال الأطباء إن العملية لن تنفع.. وإنها جاءت متأخرة.. وإن السرطان سيعاودها فى خلال سنة.

ومضت شهور من الانتظار المفزع.. انتظار الموت..

وأنا كل يوم أنظر إلى وجهها وهى تضحك، فيخيل لى أنها جثة تضحك.. وأدخل غرفتى وأبكى بحرقة.. فلم يكن فى إمكاننا أن نقول لها الحقيقة..

لقد تمنيت أن يصيبنى الله بدائها ويأخذنى لأستريح.. فلم يكن لدى شىء أتعلق به.. أما هى فكان لها حب تعيش من أجله.. ورجل تعبده.. وابنة جميلة تعشقها.

كانت الدنيا بين يديها.. وكنت وحدى..

ولكن الموت لا يختار ضحاياه..

واقتربت نهايتها.

وكانت آلام العظام تفرى جسدها.. وكانت تصرخ وتتشبث بيدى هاتفة فى ذعر..

لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت.. إنى أفضل أن تطحننى الآلام ولا أموت..

لا أريد أن أترك زوجى.. حبيبى.. سعادتى.. لا أطيق أن تأخذه امرأة أخرى منى..

وتمسك بزوجها وتصرخ.

احلف لى أنك لن تتزوج بعدى.. احلف أنك ستعيش تذكرنى.. لا أطيق أن تلمس يديك الحنونين امرأة أخرى.. لا أطيق أن تلمس شفتيك شفة أخرى غير شفتى.. إن هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من الموت..

وزوجها يبكى ويقبل يديها وقدميها ويؤكد لها أنه لن يتزوج.. أبداً.. أبداً.. مدى الحياة.

ثم يخرج إلى الصالة وينهار باكياً.. ويقول:

لم أعد أطيق عذابها.. إن آلامها تقتلنى.. أتمنى أن تموت لتستريح.. ولكن كيف تموت.. إن موتها يعنى انتهاء حياتى أنا أيضاً.. يارب.. وكانت فى أيامها الأخيرة تهذى باستمرار.. وكانت فى حاجة إلى سهر وتمريض مستمر..

وطلب زوجها منى ومن أمى أن نبقى معها فى البيت.. لنتبادل السهر عليها.. ولكن أمى اعتذرت بكل بلادة بحجة أنها لا تستطيع أن تترك البيت والأولاد.. ولأنها ليست فى السن التى تسمح لها بالسهر إلى جوار مريضة...

ومن هى هذه المريضة.. إنها بنتها!!

وكان معنى هذا أن أسهر إلى جوارها وحدى..

وأن أسمع كلماتها.. كلمة.. كلمة.. وآهاتها.. آهة.. آهة.. وأن أتلقى لهثاتها وشهقاتها على صدرى.. وأن أموت إلى جوارها بالحياة..

وتلطف الله بها فقبض روحها إلى جواره.. وأصبت أنا بانهيار عصبى.. فأخذنى خالى إلى الإسكندرية.

وسافرت وأنا كالمذهولة..

وبذل خالى وزوجته والعائلة كل ما يستطيعون من جهد ليخرجونى من حزنى وصمتى وانطوائى.. دون جدوى.. ولم يكن

أحد منهم يعلم مدى ما أعانيه..

كنت كلما أغمضت عينى رأيت أختى ميتة، وزوجها يحتفظ بجثتها فى المنزل ويأبى أن يدفنها لأنها لا تستطيع فراقه. وتتشبث به وهى ميتة.

* * *

ومرت سنة وذهبنا لرأس البر لنصطاف.

وجاء زوج أختى فى زيارة لمدة ثلاثة أيام..

ولاحظت خلالها أنه بدأ يغير نظرته لى فبعد أن كان يعاملنى كشقيقة صغرى بدأ ينظر إلى كامرأة..

ولم أفهم ما يقصده..

وحينما عدنا إلى القاهرة وعلمت العائلة بزيارته.. أخذوا يباركون لى.. على إيه؟ وسمعت صديقات أمى يباركن لها فى التليفون.. على.. إيه..

وأمى تقول لى إنه شىء طبيعى.. وإنه أحسن زوج لى.. أنا.!!؟

أتزوج زوج أختى التى عاشت طول عمرها تعبده واستحلفته بحياتها وعذابها ألا يعطى نفسه لامرأة أخرى بعدها.. مستحيل.. مستحيل.. مستحيل.

إنى أموت بلا زواج ولا أتزوجه. مستحيل..

واجتمعت العائلة حولى.. ليقولوا كلهم فى نفس واحد:

- مستحيل ليه..؟

أنت أحق به من الغريبة.. واللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش وحاتفوتى البنت لمين.. البنت الحلوة الصغيرة.. بنت أختك اللى حتتمرمط فى إيد اللى تسوى واللى ما تسواش..

وهو ماله.. أخلاقه ممتازة.. وفلوسه بالألوف.. وإنسانيته.. وعقله.. وحنانه.. وأدى انتى شفتى إزاى كان بيعامل أختك..

وصرخت.. مستحيل.. مستحيل.. أنتم مجانين.

ولكنهم أحاطوا بى فى حلقة.. وأخذوا يضيقون الخناق حول عنقى وسلاحهم العقل.. والمنطق.. وكلامهم معقول وأسوأ ما فيه أنه معقول..

إنه شخص ممتاز فعلا.. وأنا أولى برعاية بنت أختى من الغريبة.. ولكنى لا أشعر نحوه بشىء..

ومن أدراكم أنه لم يكن يعامل أختى هذه المعاملة إلا لأنه يحبها.. وكيف أسلب أختى راحتها وهى فى قبرها وآخذ زوجها.. مستحيل.. مستحيل..

مستحيل ليه.. إنها حينما تحس فى قبرها أن بنتها.. وديعتها ذهبت إلى يد أمينة.. وأن أختها هى التى سوف ترعاها فإنها سوف تفرح.

أنت مغفلة..

مغفلة.. ربما..

إن أسوأ ما فى كلامهم إنه معقول..

يارب ساعدنى..

أبى.. أبى حبيبى..

أبى يقول لى بسذاجة.. تزوجيه.. إنك أولى به من الغريبة. إنه إنسان طيب.. وبنته سوف تكون بنتك.

أخى يقول لى.. تريثى حتى تعرفى شعورك.. إنها ستكون آخر فرصة لك..

أمى سافرت إلى الإسكندرية لتعود ومعها البنت.. بنت أختى..

آه من البنت..

إنها حينما رأتنى. ألقت بنفسها على صدرى واحتضنتنى فى حب وغمرتنى بالقبلات فى كل مكان من وجهى وعنقى.. وطلبت أن تنام معى.

وحينما أخذتها فى حضنى لم يغمض لى جفن طول الليل. كان كلامها يفتت كبدى.. ويقلب تفكيرى رأسا على عقب، وجاء هو.. بعد أسبوع وفاتحنى فى موضوع زواجه بى.. وصارحته بكل ما يدور فى رأسى.. قلت له إنى لست كشقيقتى.. بل أنا على

عكسها فى كل شىء.. فى الطباع والأخلاق والصورة وإنى لن أستطيع ملء الفراغ الذى تركته. وشىء آخر أهم من كل هذا.. إنى لا أحبك كما كانت تحبك هى.. صحيح أحترمك وأعزك لأنك شخص مثالى وأحبك كأخ.. ولكنى لا أشعر نحوك بشعور الزوجة لزوجها..

فقال لى:

- إنى أكتفى الآن بهذا الحب.. وسوف أترك للزمن أن يجعلك تحبيننى كما تحب الزوجة زوجها.. أما عن طباعك وأخلاقك فأعتقد أنى أفهمك أكثر من أى شخص آخر.. وسأعرف كيف أعاملك.. وأعوضك كل ما فاتك.. أما عن الصورة فصحيح أنت تختلفين عنها كثيراً.. وليس معنى هذا أنك وحشة.. ولكن لك جمالك الخاص بك، أما عن الفراغ الذى تركته أختك فأنا لم أتقدم إلا بعد ثقتى فى نفسى وفى شعورى..

وقلت له:

- أنا متأكدة أنك لم تطلب الزواج منى إلا من أجل بنتك والخالة مهما كانت فهى أرحم من امرأة غريبة..

فقال فى نبرة تأكيد:

- أنت مخطئة فى تقديرك.. فأنا أولا وقبل كل شىء أطلبك لأنى معجب بك.. وأنت تعلمين أنى أعيش مع أختى الأرملة.. وأنها تخدمنى وتخدم بنتى.. ولا يدفعنى إلى الزواج بك حاجتى أو حاجة

بنتى إلى الرعاية وإنما يدفعنى حبى لك.

وهنا دخلت علينا البنت وقالت فى نبراتها الحلوة:

- مالكم قاعدين تتوشوشو زى المتجوزين كده..

بتقولوا ايه.. بابا؟.. بتحب طنط زى ما بحبها.. أنا بحبها قوى ما أعرفش ليه..

- وأنا كمان بحبها يا حبيبتى.

- خلاص ما دام بابا بيحبك وأنا معنديش ماما.. ليه متكونيش ماما.. إنتى معندكيش ولاد.. وأنا معنديش ماما.. يبقى أنا بنتك وإنتى ماما..

فاغرورقت عيناى بالدموع.. وتلقفتها فى حضنى..

وقال هو فى صوت حزين:

- ألا يكفيك إسعاد ثلاثة أشخاص أحياء وأعزهم المتوفاة لكى تشعرى بسعادة كبيرة.

فأعلنته موافقتى دون وعى منى.. فقط اشترطت عليه تغيير لسكن إذ لا يمكننى العيش فى نفس الشقة التى عاشت أختى وماتت فيها.. وهكذا تزوجت الأستاذ عزيز.. زوجى.. وبدأت مأساتى الكبرى.

٦

قلت لعزيز إنى لا أستطيع الدخول فى شقة أختى المرحومة وعلى عفشها.. فوعدنى أنه سوف ينتقل إلى شقة أخرى.. وسوف يشترى لى عفشاً جديداً، ويعطى العفش القديم لأمى.. وطلب منى الإسراع فى إعداد ملابسى الجديدة.. وبدأنا نتشاور فى الأثاث الذى سنجدده.

وبعد عقد القران خرجنا نتمشى بالليل.. وعند عودتنا فوجئت به يشدنى إلى غرفة النوم ويغلقها بالمفتاح.. ويطلب منى حقه الشرعى.

وفوجئت بهذا التصرّف من جانبه.. وخصوصًا بعد أن شرحت له حالتى، وحاجتى لتغيير الشقة، والجو القديم لتستريح أعصابى.

ولم أكن قد تهيأت بعد لهذه الرغبة..

كنت مازلت أنظر إليه كأخ أحترمه وأعزه..

وكانت مفاجأة ارتبكت لها تمامًا.

وتم اتصالنا فى نفس غرفة النوم التى كانت تنام فيها الميتة..
وعلى فراشها..

ولم أشعر بلذة..

لاشيء سوى إحساسى بالاشمئزاز منه وهو يخلع ثيابه.. واشمئزاز من نفسى.. وأنا أنام وأمتثل لكل ما يطلبه.. وفضول ودهشة.. وإحساس بالبلل.. وبالقرف.. ثم إحساس مرير بالذنب فى حق أختى وأنا أسلبها أعز ممتلكاتها.. وأطلب المتعة فى فراشها الذى ماتت فيه..

ونام هو..

وظللت أنا صاحية أتقلب على فراش من الشوك، وأحملق فى الظلام وشبح الميتة أمامى، وصوتها يجلجل فى أذنى.. وهى متشبثة بذراع زوجها تصرخ:

- احلف لى أنك لن تتزوج بعدى يا عزيز.. احلف أنك ستعيش تذكرنى.. لن أطيق أن تلمس يديك الحنونتين امرأة أخرى.. ولا أن تلمس شفتاك شفتين غير شفتى.. إن هذا يقتلنى ألف مرة أكثر من الموت.

وأنا أصرخ وأبكى إلى جوارها وأولول.. يا حبيبتى يا أختى سوف تعيشين لزوجك ولبنتك.. لن تموتى أبدًا سوف أموت أنا..

وأنتبه لأجدنى على الفراش.. أنا بلحمى ودمى وإلى جوارى زوجى عزيز نفسه.. وجسدى مازال يبلله العار من آثاره.

ويصحو زوجى ليذهب إلى الشغل ثم يعود قائلا إنه تعب من البحث عن شقة أخرى بإيجار قديم وبخلو رجل.. ويقترح على تغيير نظام الشقة وفتح الحائط بين حجرة النوم وحجرة الأولاد لتغيير المنظر وتحويل الغرفتين إلى غرفة جميلة واسعة.. إلى أن نبنى فيلا..

- وهل ستبنى فيلا؟

فيقول.. نعم. لقد اشتريت الأرض فعلا.. وبدأت أتفق على رسمها وبنائها.. ولكن بالطبع لن أستطيع دفع أقساط بنائها إذا انتقلت إلى شقة بإيجار جديد لأنى لن أستطيع الدفع فى الشقة الجديدة والفيلا فى وقت واحد.

- وهل ستنتهى من بناء الفيلا قريبًا..

- فى ظروف شهور قليلة يا حبيبتى.. إن الحكاية لن تحتاج أكثر من شهور قليلة نصبر فيها على عيشتنا هنا حتى ينتهى البناء..

وهكذا صبرنا..

وبقينا فى تلك الغرفة الملعونة.. لم يتجدد شىء سوى عذابى الذى بدأ يوم بعد يوم ليصبح عذابًا رهيبًا..

يصبح الصبح فأقوم لأساعد البنت على الذهاب إلى المدرسة.. وأعد لزوجى فطوره..

ويذهب إلى عمله وأبدأ أنا فى الإشراف على البيت.. ويتملكنى الشعور بأنى لست فى بيتى.. وإنما أنا زائرة غريبة.. لصة.. كل حجرة تذكرنى بأختى.. كل مقعد.. كل قطعة أثاث..

إنه لم يتزوجنى أنا.. إنه لم يتزوجنى أنا.. إنه يتزوجنى لأنى من رائحة أختى التى يحبها. تزوجنى ليتعلل بى حتى يبقى فى نفس البيت.. وفى نفس الغرفة. ونفس الفراش الذى يحبه..

ما أنا إلا شبح.. أما الحقيقة التى تملؤه وتملأ قلبه وتملأ البيت وتملأنى أنا أيضًا فهى جسم الميتة وأنفاسها..

أنا لصة سرقت زوجها منها.. بل هى اللصة التى سرقت نفسى منى.. سرقت حقيقتى.. ووضعت فى مكانها صورتها ورائحتها.

وفى كل يوم أبتعد عنه أكثر.. وأبتعد عن نفسى أكثر وأكثر ويتسع الجرح فى داخلى.. وينفصل سلوكى الظاهرى الذى أتكلفه بحكم الواجب.. عن شعورى الداخلى الذى يضطرم داخلى بالنفور..

وهو لايشعر بالعذاب الذى أعانيه.. وإنما يثور لبرودى.. ثم يكف عن الاهتمام بى وبرغباتى.. ويأخذ فى معاملتى كشىء اشتراه بالمال.. يأخذ منه حقه الشرعى متى يشاء بالطريقة التى تعجبه.. لايعبأ باشمئزازى.

ويتحول فى نظرى إلى حيوان..

وأبحث فيه عن الرجل الممتاز.. والإنسان اللطيف الذي تعودت أن أحترمه فلا أجده.

إن المعاملة السرية والعطف الرقيق المتبادل فى لحظة الفراش.. وحرص كل واحد على شعور الآخر.. وتجاوب النفوس والأرواح هو وحده الذى يخلق الاحترام الحقيقى والحب بين زوجين.. أما المظهر اللطيف فى الشارع وفى الترام وعلى البلاج فإنه لايكفى ليجعل من الرجل زوجًا.

إن الرجال يتغيرون كثيرًا حينما يخلعون ملابسهم الرسمية.

ونحن نكذب على أنفسنا حينما نقول إننا سوف نحب أزواجنا بمرور الوقت.

لقد فهمت هذا بعد فوات الأوان.

لم يكن زوجى ذلك الرجل النبيل الجنتلمان الذى تعودت أن أحترمه وحينما خلع ملابسه.. كان مجرد حيوان.

ولم يحدث شىء بمرور الوقت.. لا حب.. ولا حتى تعود.. وإنما ازدادت كراهيتى.. وازداد نفورى.

وكنت أشعر بالضيق كلما اقترب منى ليأخذ ما يسميه حقه الشرعى، وكنت أحيانًا أضغط على نفسى لأرضيه.. وأحيانًا أعلنه بأنى غير راغبة وكان حينئذ يثور.. ويقول إنه بشر وبدنه له عليه حاجات.. فمن أين يقضى هذه الحاجات.. فأثور أنا أيضًا

وأصرخ بأنى بشر.. وبدنى له على حق أنا الأخرى. ولا أستطيع أن أرغمه على طعام لا يحبه.

وكان يحدث دائماً إذا ضغطت على نفسى وامتثلت لمطلبه.. أن أثور بعد هذا لأتفه الأسباب.. وأبكى.. وأصرخ.

وإذا حدث العكس وضغط هو على نفسه.. وامتنع من أجلى.. فإنه كان يثور وينفجر بعدها لأتفه سبب.

وكنت حينئذ وحينما تبلغ ثورته أشدها.. أشعر براحة شريرة فى داخلى.. لعلها أختى الميتة هى التى كانت تبتهج فى داخلى بعذابه.. ولكنى كنت أشعر شعوراً آخر واعيا بالعطف عليه.. والحزن من أجله.

وهكذا كنت أتراوح بين إحساسات متناقضة.

وبدأ يلجأ إلى أدوية وأساليب طبية ليطيل فى فترة اتصاله بى. وكنت فى تلك الحالات أشعر بلذة.. ولكن اللذة كان يعقبها قىء وصداع وآلام نفسية حادة.. وشعور بالنفور والاشمئزاز من جسمى لأنه يتلذذ وحده كالحيوان دون أن تتلذذ روحى وتنعم نفسى.. ودون أن أشعر برضى القلب.

وكنت أحتقر جسمى.. وأعاقبه وأثأر منه.. وأنظر إليه باشمئزاز كأنه جسد عاهرة باعته فى سبيل قوتها ومصروف يدها.

كانت اللذة تنتهى دائماً بنكد لى ولزوجى..

وأدرك أنه لا فائدة.. فأسلم نفسه ليأس مرير..

وبدأ يعاملنى كأنى وسيلة يؤدى بها وظائفه بدون شعور.. بدون تمهيد.. بدون مقدمات.

وتحولت ساعات الليل إلى ساعات عذاب أليم.

وفى بعض الأحيان كنت أشعر بانقباض فى صدرى بمجرد سماعٍ أذان العصر.. ودخول الليل.. من خوفى.. ومن احتمال طلبه شيئاً.. وفى أحيان أخرى كنت أنهار وأبكى.. وألطم خدى.. وأشد شعرى.

وكثرت رؤيتى لأختى فى الأحلام.

وكنت أراها فى مرة تغسل ثياب زوجى.. ومرة تخيط له جواربه أو تطعم بنتها وتعد لها الشاى واللبن.. وتلبسها مريلة المدرسة.

كانت تروح وتجىء حولى.. وفى عقلى.. وفى خيالى.. وتعيش حياتها البيتية العادية.. التى هى حياتى.. وأنا أنظر إليها.. وإلى نفسى كأنى غريبة تماماً.

وبدأت أغرق آلامى فى القراءة.. كنت أقرأ لزفايج.. وأطالع مارسيل بروست.. وبعض كتب بلزاك قرأتها مرتين وثلاثة.. وأحياناً كنت أقرأ الجرائد القديمة.. وأحياناً كنت أكتب..

وأحياناً كنت أتلهى بالعزف على البيانو.. وكنت أحب

المقطوعات الحزينة اليائسة مثلى.

ولكنى كنت أحس فى لحظات أن كل هذا كلام فارغ.. وكنت أمزق الأوراق التى كتبتها.. وأمزق الكتب.. وأمزق شعرى.. وأبكى فى حرقة وصمت.

كل هذا كلام فارغ..

إن أنوثة المرأة هى كل وجودها.. وحينما تفقد المرأة جسمها وروحها فلا شىء يعوضها.. لا شىء.. لا شىء أبداً.

وفى تلك الأحيان كنت آخذ الأقراص المنومة.. لأنام.. وأقتل سوس القلق واليأس الذى يأكلنى.

كنت أنشد الخلاص من نفسى بأى ثمن..

* * *

وأخيراً وصلت إلى غرفة النوم الجديدة.. وجاءت معها أمى.. وغيرت نظام البيت.. وبعد يومين تشاجرنا وسافرت غضبانة لأنها تريد أخذ بعض مفارش أختى بحجة أنها أصبحت زائدة عن حاجتى.. ورفضت بشدة.. وقد أحسست مدى الفارق بيننا.. هى كل تفكيرها محصور فى أخذ مفرشين أو ثلاثة.. وأنا أعيش أبكى وأصرخ وأحرم على نفسى حياة وسعادة هى ملكى وحقى لمجرد أن أختى اشتهتها يوماً ما..

وأدركتنى رحمة الله وظهرت على بوادر الحمل.. واسترحت من

اتصالى بزوجى بضعة أشهر أنجبت بعدها طفلا جميلا.. شعرت بالفرحة لأول مرة.. حينما نظرت فى وجهه.

وسافرنا إلى بورسعيد.. وفتح زوجى مكتباً للمقاولات.

وكانت حياتنا تبدو من الظاهر رتيبة هادئة، وكأنما التأمت جراحها ولكنه التئام من السطح فقط.. لأنها كانت تزداد عمقاً يوماً بعد يوم..

ومرت شهور.. وانتقلنا إلى شقة جديدة.. ولاحظت أن حال زوجى ساءت.. وأن أعصابه أصبحت لا تحتمل أى شىء.. وأنه أصبح يثور فى وجهى بلا سبب ويظل يصرخ ويشتم ثم يحملق فى وجهى.. وتلمع عيناه ببريق مخيف فيه مزيج من الكراهية واليأس والجنون. وكان يخيل لى ساعتها أنه سيقع فاقد النطق..

وكان السبب هو سوء حالته المالية.. وتوقف أعمال المكتب بسبب الحالة الاقتصادية.

وكنت أحاول بشتى السبل أن أطيب خاطره بدون نتيجة.. إذا هونت عليه المشكلة اتهمنى بأنى لا أقدر الموقف.. وأنى أنانية لا يهمنى إلا نفسى.. وإذا حاولت التفكير معه.. نهرنى وقال: إنى طفلة فى تفكيرى.. وإنى لا أفهم شيئاً.

وجاءت الست الوالدة.. لا لتزورنى ولكن لتقبض حوالى الخمسمائة جنيه تعويضاً عن ثلاثة كباين غمرتها المياه بسبب

إهمال البلدية.. والحقيقة أن هذه الكباين كانت قد اشترتها من نقود والدى دون أن يعلم.

وقلت لها إنى معذورة.. وفى حاجة لقرشين.. وإن حالة البيت تعبانة.. وإن زوجى عصبى باستمرار بسبب توقف الأعمال فى مكتبه..

فوضعت يدها فى محفظتها. وأعطتنى ثلاثة جنيهات.. ولم أعرف ماذا أقول؟ وبماذا أشتمها؟ وألقيت فى وجهها النقود.

وقعدت أصرخ وأبكى.. وزوجى يصرخ فى وجهى.. دى مش عيشة.. إيه القرف ده.. أنا ذنبى إيه أستحمل النكد المستمرده.. انتى اتخانقتى مع أمك.. تقوم هى تسافر مبسوطة.. وأنا اللى أشرب المر هنا..

وأبكى فيزداد صراخه.

وبدأت أفكر جديًا فى وضع حد لهذا العذاب.

كان الطلاق غير مجد.. فقد فات الأوان وتحولت إلى عجوز صفراء كالحة فى سن الثلاثين.. امرأة ذاهلة تائهة لا تصلح لشىء.

ولم تكن لى حياة أخرى أحياها.. أو بيت آخر ألجأ إليه.. أمى تكرهنى وأنا أكرهها.. وسوف تطردنى من بيتها إذا لجأت إليها.

وإذا طلقنى زوجى فلن يكون أمامى حل سوى الانتحار.

كانت حياتى كلها يأس فى يأس المخرج الوحيد فيها هو الخضوع والقبول والاستسلام..

وبدأت أقتل فى نفسى كل إحساس.. وأعيش جسداً بلا روح.. أتحرك فى فراغ مفزع.. وملل قاتل.. وأنام فألبث فى فراشى بلا حركة لا أنا بالنائمة أو بالصاحية.. وإنما راقدة فى خمول شنيع.. أقوم من رقادى لأرقد من جديد..

وبدأ يشتمنى فلا أرد.. ويسبنى بألفاظ بذيئة فلا أجاوبه. ويثور فى وجهى ولا أتكلم.

وإذا به يصرخ فجأة:

إنتى ساكته كده ليه.. عاوزه تفرسينى.. حد مصلطك عليه.. عاوزانى أتجنن.. عاوزانى أطلقك وأخلص.. طيب أنت طالق..

ووقف يطلب والدى فى التليفون ويبلغه أنى طالق.

ونام ليلتها فى حجرة أخرى.. وبت أنا أفكر فى مصيرى.. لا شىء أصبح يجدى.. خضوعى أصبح يثيره.. وهياجى يثيره.. وها أنا مطلقة.. بلا أمل.. بلا بيت.. بلا صدر حنون ألجأ إليه..

واندفعت إلى موس حلاقة وجدته أمامى.. وقطعت شريان ذراعى وأغمى على.. وكان آخر ما سمعته صوت الخادمة وهى تصرخ.. دم.. دم.. دم..

وحينما أفقت كان زوجى راكعاً إلى جوارى يقبل يدى.. وقدمى.. ويبكى ويتوسل.. ويقول إنه سيفعل المستحيل لإسعادى.. وإنه لن يتركنى أبداً مهما حدث.

* * *

وأنقذونى من الموت لأموت بطريقة أخرى.. ببطء.. فى البيت الواسع.. والحجرات التى لا أعرفها.. والرجل الغريب الذى يضمنى كل ليلة على أنه زوجى.

والملل.. والفراغ.. والحياة التى بلا معنى.

وكل يوم مثل الآخر..

وأنا أقرأ.. وأكتب.. ثم أشعر أنه لا فائدة من أى شىء.. فآخذ الحبوب المنومة لأنام.

ولا أحد يشعر بى..

آه يارب..

ماذا فعلت لأتعذب؟

وما هو الأمل الذى أتحمل من أجله كل هذا العذاب؟

إن الناس يضحون بأنفسهم من أجل شىء.. وأنا.. من أجل أى شىء أضحى؟!

إنى أخسر كل شىء.. حتى نفسى.. وليس لى إلا نفس واحدة أعيشها..

وانتهت المذكرات.

* * *

وعدت أمسك حزمة الأوراق.. كأنها حزمة من الأعصاب لا من الأوراق..

هذه هى نانى.. وهذه هى القصة التى كنت أبحث عنها خلف عُينيها..

وضعتها بجانبى فى رقة كأنى أوسد جريحاً.. وعادت كل كلمة فيها ترن فى أذنى.. كل شخص يطاردنى.. ويتمثل لخيال.. وكأنى أعرفه من زمن بعيد.. وكأنى عشت معه..

كلهم تجمعوا حولى.. الأب الحنون الذى يتعذب فى صمت.. والأم القاسية.. والأخت التى ماتت وبعثت.. بعثت فى دمى أنا أيضاً.. والزوج ونانى.

لم يعودوا يتحركون وحدهم.. أصبحت أتحرك معهم.. وأشاركهم مصيرهم.

وخلف الظروف التى تباعد بيننا وجدت الخيط الذى يربطنا نحن الاثنين أنا وهى.

كل منا ضاعت حياته.. وهو يبحث عنها.

ضاعت نفسه.. وهو لا يجدها.

كل كلمة قرأتها وثقت هذا الحبل الخفى.. وعقدت بيننا ذلك القران الحرام الذى لا مفر منه.

إنها لا تعرفنى.. ولكنها مع هذا قد سلمتنى مفاتيح عالمها الخاص لأدخل فيه..

ولعلها عرفتنى بما فيه الكفاية حينما نظرت فى عينى فوجدت

نفس العالم الذى تسكنه.. وشعرت بأواصر الضياع التى تربطنا دون أن نتكلم.

نانى..

أشعر بها قريبة منى.. أشعر بها حولى.. فى داخلى.. إلى جوارى.. أحبها.. بنفس اليأس الذى تكره به زوجها.

نانى.

ولم أستطع أن أصبر..

ولم أعرف ماذا أفعل بالضبط.. وإنما وجدت نفسى أدير قرص التليفون على رقمها.

– نانى.. أريد أن أراك فى الحال.

وكان صوتى يرتجف من العاطفة.

ولبثت صامتة برهة على الطرف الآخر من التليفون.

وسمعت صوت لهثاتها.. وصوت أفكارها.. وصوت قلقها.. ثم أجابت فى استسلام.. وبلا وعى.. فى يأس.. كأنها امرأة تمشى فى نومها..

– طيب..

* * *

كانت تجلس إلى جوارى فى العربة.. وأنا أسير ببطء فى طريق خال على أطراف القاهرة.. وكانت تقول لى:

- هل قرأت الأوراق كلها؟
- وعشت فيها.. كلمة.. كلمة.
- وهل تجد أن لى حلا؟
- أنا لا أجد لك ولا لنفسى حلا.
والتفتت إلى فى دهشة.
- ما دخلك أنت؟
- وما الذى جعلك تلقين بين يدى هذه الأوراق على خطورة ما فيها؟
- لا أدرى.. ولكنى كنت أشعر دائماً أنك لست غريباً عنى، كنت أشعر أنك وحيد تماماً مثلى.
وسكتت لحظة ثم أردفت.
- أليس هذا غريباً.. أن يشعر رجل بالوحدة.. إن الدنيا كلها دنيا الرجل.. إنكم تستطيعون أن تفعلوا كل شىء.
- وما جدوى أن نفعل أى شىء.. إننا نريد ما تهواه أنفسنا..
- وما الذى تهواه نفسك.
- أريد أن أعيش.. أريد أن أحب وأتزوج وأنجب ولداً.
- ألم تشعر إلى الآن أنك قد تزوجت وأنجبت ولداً.

– إنى أشغل وظيفة زوج وأب. ولكنى لست متزوجاً.. ولا أباً.

– ولكنكم تستطيعون تغيير وظائفكم أحياناً يا رجال.. تستطيعون الطلاق والزواج مرة.. وأخرى.

– ليست لدى القوة ولا القسوة الكافية لأفعل هذا.. أنا أضعف من أن أغير حياتى.. وأقوى من أن أقبلها.

– إنك تتكلم مثلى.. أنت الرجل.. من يصدق هذا؟!

وسكتت لحظة ثم قالت:

– ومع هذا فلا أحد قد أكرهك على هذه الحياة.. لم يزوجك أحد عنوة..

– لم أتزوج عنوة.. ولكنى تزوجت خلسة دون أن أدرى.

– وما ذنب زوجتك.. وما ذنب الولد الصغير..

– ليس لأحد ما ذنب.. إنى لا أشكو أحداً..

– هأنذا ألومك.. وأنا غارقة فى الذنب حتى أذنى.. ماذا أقول ماذا أفعل؟ ما الحل؟

– الحل هو أن نحلم.. أنا شخصيًّا أبحث عن حلم أنشغل به وأتوه فيه.. ولكنى متيقظ.. متيقظ دائماً.. وهذه اليقظة تعذبنى..

– ولكنك رجل.. أليس كذلك.. والرجل يستطيع أن يغرق همومه فى عمله.

– إن عملى مثل زوجتى.. غريب عنى.. لا أحبه.. أنا أملأ به وقتى فقط.. ولكنى أريد أن أملأ نفسى.. إن الفراغ الكبير هنا.. داخلى.. أشعر أنى عاطل تماماً.. أشعر بالملل يقتلنى.

– إنك تعذب نفسك بدون داع.

– أريد أن أشعر بالحماس. أريد أن أتحمس.. أريد أن أتحمس لشىء ولو كان هذا الشىء ارتكاب جريمة.. إنى أحياناً أحسد المجرم لأنه ارتكب جريمته فى غل.. أنا أريد أن أشعر بالغل نحو أى شىء.

– ألم تحب.. ألم تشعر بالحب مرة فى حياتك؟

– أحياناً أقنع نفسى أنى أحب هذه أو تلك.. ولكنى لا أستطيع أن أستمر فى الكذب على نفسى طويلا.

– لا شك أنها تكون مغامرات مسلية.

– إنها تكون مسلية فى البداية.. لكنها تكون قاتلة فى آخرها.. حينها أشعر أنى قد فقدت القدرة على السعادة إلى الأبد.

– إنك تبالغ.. لا شك أنك تبالغ كثيراً.. إن الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا.. إنى أحياناً أجد السعادة فى أشياء صغيرة جدا.. فى نظرة من عين ولدى.

كانت تحاول أن تسرى عنى.. وكان يبدو على وجهها أنها تشعر بالراحة.. وكنت أشعر بالراحة لأنى وجدت إنساناً أيأس

معه.. وآمل معه.. وأسخط على الحياة معه.

أكان حبًّا.

أكانت أنانية منا نحن الاثنين.. كل واحد يجد نفسه فى الآخر.. يجد مصداق حياته ماثلا أمام عينيه.. لا أدرى.

كل ما أعرفه أنى كنت أريد أن أتكلم.. وأتكلم..

لم أكن أريد أن أكف عن الكلام.

وكنت أشعر أن الوقت ضيق.. وأن ما أريد أن أقوله كثير.. كثير جدًّا.

ولم أفق من الحمى التى كنت فيها إلا حينما نبهتنى إلى أن الوقت متأخر وأننا يجب أن نعود إلى البيت..

ولكنى ما كدت أعود وأستقر وحدى فى غرفتى حتى شعرت بحاجة شديدة إلى أن أكلمها.. وما لبثت أن رفعت السماعة فى تردد.

كانت وحدها..

وقالت لى إنها كانت على وشك أن تطلبنى.

شعرت بسعادة لا توصف.. وقلت لها فى أسف:

- أنا أشعر بخجل شديد.. لأنى قضيت كل الوقت معك.. وأنا أتحدث عن نفسى.. كانت أنانية منى لم أكتشفها إلا حينما عدت إلى البيت.. اغتفرى لى سوء أخلاقى.

- إنك دائماً تحاول أن تحمل نفسك ذنباً.. لماذا تضطهد نفسك.

- أنا لا أضطهد نفسي. ولكني لا أريد أن أكون همًّا يضاف إلى همومك.. لا أحب أن أكون طفلا كثير الصراخ يضاف إلى أطفالك فلديك ما يكفيك.

- أنت لست طفلا.. أنت عجوز جدًّا.. يخيل إلى أنك ولدت عجوزاً كهلا.. إننى أشك فى أنك عرفت الطفولة يوماً ما.. إن الطريقة التى تمشى بها.. والطريقة التى تنظر بها.. هى طريقة رجل كهل جرب كل شىء.. وانتهى من كل شىء.. ويئس من كـل شىء..

- هذا صحيح.. أنا أشعر أحياناً أنى عجوز جدًّا.

- اترك نفسك على سجيتها.. لا تضطهد نفسك. بكل هذا التفكير. دعنى أكون طبيبتك النفسية..

- حاضر يا دكتورة.. وماذا عندك من تعليمات أخرى؟

- حذار من المغامرات المسلية.. فإن قلبك العجوز لم يعد يحتملها.

- حاضر.

وابحث لنفسك عن عمل تحبه.. عمل مضنٍ مرهق تنشغل به طول النهار وتعود متعبا لتنام.

- لقد وجدت هذا العمل من الآن.

- ما هو؟

- أنت.. أنت ستكونين عملى المضنى الذى أحبه.. وأشغل نفسى به طول الحياة.

وسكتت لحظة.. ولم تجب.. وسمعت صوت لهثاتها.. ثم قالت باضطراب:

- لقد اخترت عملا يائساً.. خاسراً.. لقد اخترت سما تتعاطاه ولم تختر دواء.. أنت تريد الموت لا الحياة.

- لقد فقدت القدرة على أن أعيش كما أشتهى.. دعينى أمت كما أشتهى.

- أنا أحمل من الذنوب ما يكفينى.. لا أريد أن أحمل ذنبك أنت أيضاً.. لقد حطمت حياتى.. ولا أريد أن أحطم حياتك معى.. أنت أغلى من أن أختار لك هذا المصير.. أنا أريد لك السعادة.

- أنت سعادتى.. أنا أحبك.. أحبك يا نانى.

وسكتت.. هذه المرة سكتت طويلا.. وسمعتها تبكى بحرقة.

٧

كنت أقف أمام الحوض.. رأسى تحت الحنفية.. والماء ينزلق على شعرى.. وعيناى مازالتا مثقلتين بالنوم.

ومن خلفى كانت أمينة تحمل الفوطة.. وكنت أسمعها تتكلم.. وصوتها مبحوح من البكاء طيلة الليلة الماضية.. ولكنه ثابت.. جاد.. فيه نبرة شديدة لم أتعودها.

كانت تكلمنى عن أطيانى فى الصعيد.. وعن خطاب جاء من عند الخولى.. يطلب نقوداً للزراعة.. وكانت تقول إن والدى كان يذهب بنفسه.. ويباشر العمل.. ويفتش على أرضه وزراعته.. وإنى أهملت كل شىء.. وإن الفلاحين يسرقوننى.. وإنى سوف أفقد أملاكى وثروتى إذا لم أفتح عينى جيداً.. وكانت تتكلم بشدة.

– لابد أن تسافر للصعيد.. وتباشر أرضك بنفسك.. إن أباك لم يجمع هذه الأرض بسهولة.. لقد ضيع فيها عمره..

وأحسست بالخجل من نبراتها.

وأحسست بالضيق لأنها ذكرتني بالمسئوليات.

وأخفيت وجهي في الفوطة ورحت أحك رأسي عدة مرات.. وأنا مازلت أمضغ ذلك الضيق الذي استولى على.

وذهبت إلى مكتبي.. ورحت أفض الخطابات..

كان لابد من السفر إلى الصعيد.. ومباشرة الزراعة فعلا.. فلا أحد هناك سوى الخولى.. وهو يفعل كل شيء على هواه.. يزرع ويجمع ويحصد ويبيع ويشترى.. ويكتب ما يشاء من مصاريف وإيرادات.. ويأخذ ما يحلو له ويدفع ما يحلو له..

كان من الواجب عمل شيء.

وضايقتني كلمة الواجب.

وحينما بدأت أعد الحقائب للسفر أحسست أن أرضى هي التي تملكني.. ولست أنا الذي أملكها..

هي التي تجثم على أكتافي.. وتركبني.. وتسوقني إلى حيث لا أريد.. لأن الواجب كذا.. وكذا..

أف من الواجب.

الصعيد؟!

مالي أنا ومال الصعيد!!

أنا أريد البقاء بالقاهرة.. إلى جوار الدفء الجديد الذي أخذ ينبعث حولي..

فى الشارع الذى اخضرت أشجاره فجأة وأورقت وأزهرت.
أمام الشباك الذى تناديني منه الشمس.
والتليفون الذى يهمس فى أذنى بكلمة الحب..

ولكن الواجب.. الواجب.. وشعور بالخجل يملؤنى فأتصاغر فى نظر نفسى إلى مجرد طفل يبدد الثروة التى جمعها أبوه.

وأكره نفسى وأكره ثروتى.. وأتمنى الخلاص من الأرض التى تقيدنى..

إن أبى مازال يحكمنى..

إن الفدادين الملقاة على أطراف سوهاج.. هى روحه.. هى رغبته.. هى كلمة الواجب التى كان يطاردنى بها وأنا صغير.

* * *

وصفر القطار طويلا. وألقيت بنفسى فى عربة النوم..

وأحسست بذهنى يصفو وروحى تهدأ.. وذابت الدوشة التى كانت تأخذ بتلابيبى كما تذوب الرغوة التى تعكر وجه الفنجان..
وبدأ ذلك الشىء الغامض الذى يحيرنى يطفو شيئاً فشيئاً من أعماقى.

هأنذا فى النهاية ملقى فى عربة تجرى من بلد إلى بلد. من مكان غريب إلى مكان غريب.. لا شىء يشعرنى بالألفة سوى إحساس فى داخلى أطويه عليها.. على خيالها.. على اسمها.

اسمها يشعرنى بالألفة.. بأنى مع نفسى..

وتذكرت كلماتها وهى تقول لى:

- أنت تعذب نفسك بدون داع.. أنت تبالغ.. تبالغ كثيراً.. إن الدنيا فيها لحظات سعيدة بالرغم من كل هذا. إنى أحياناً أجد السعادة فى أشياء صغيرة جدًّا.. فى نظرة من عينى ولدى.. إنك عجوز جدا.. يخيل إلى أنك ولدت عجوزاً كهلا.. إن الطريقة التى تمشى بها والطريقة التى تنظر بها.. هى طريقة رجل كهل جرب كل شىء وانتهى من كل شىء ويئس من كل شىء.. لماذا تضطهد نفسك بكل هذا التفكير؟

وصوتها الحنون وهى تهمس:

- أنت أغلى من أن أختار لك هذا المصير.. أنا أريد لك السعادة.. لقد حطمت حياتى ولا أريد أن أحطم حياتك معى.. أنا أحمل من الذنوب ما يكفينى.. ولا أريد أن أحمل ذنبك أنت أيضاً.

بل احملى ذنبى أنا أيضاً.. وحطمى حياتى.

أنا أريد أن أشعر بالولاء لأى شىء ولو لدمارى.

أريد أن أعثر على رغبتى الضالة.. ونفسى المفقودة.. فيك أنت.. نانى.. نانى.

وظل اسمها فى أذنى.. طول الطريق والعجلات تجلجل تحت الوسادة حيث أضع رأسى.. والعربة تهتز واللمبة الكهربائية فى

السقف ترتعش ويخبو نورها ثم يتألق.. ثم هدأت سرعة القطار.. وسمعت صوت الفرامل.. ثم توقف القطار تماماً.

وظننت أنها محطة.. وفتحت النافذة ولكنى لم أجد محطة.. ورأيت القطار يقف فى العراء وسط الحقول.. والدنيا ليل.. والظلمة حالكة ولا صوت هناك سوى صوتنا ونحن نطل من النوافذ ونتكلم.. يقاطعنا بين حين وآخر صوت ذئب يعوى فى الحقول.

وقال الكمسارى: إن هناك عطلا فى الخط وإن القطار سيتوقف نصف ساعة.

ودخلت عربتى ولبثت فى فراشى ونظرت فى نور اللمبة الذى خبا تماماً وثقلت أجفانى.. ونمت..

لم أتيقظ إلا والكمسارى يدق الباب بشدة ويصيح: سوهاج.

وقمت إلى حقيبتى أسويها.. ولبست ثيابى وفتحت الباب ونزلت مسرعاً.

* * *

سلامات.. والله سلامات.. كيف الحال فى مصر.. طيبون حلت البركة.

ده الصعيد نورت.

ألف حمد الله على السلامة.

روح يا واد لعمك بشاى عيط عليه.. جول له إن البيه وصل من مصر.. والله سلامات.. والله مرحباً.. مشتاقين.

الأخبارية وصلتنا ليلة البارحة.. جينا لتونا فى الحلزونة (الاتوبيس) ومن الصبح واحنا واجفين عاد.. كل ما بيجى جطر نجول أهو وصل ونطل ما نلاجيش حد.

- إن شاء الله تكون مبسوط..

كان المتحدث هو سركيس أفندى.. الكاتب.. والخولى الذى يدير زراعتنا.. وكان يهب واقفاً كل دقيقة.. ويشد على يدى ويهزها فى عنف ويهتف:

- إن شاء الله تكون مبسوط..

وأنا فى كل مرة أهب واقفاً مثله.. وأشد على يده.. وأمرى لله.

وكان يصاحبه فلاح طويل هزيل كالح البشرة.. أشيب الشعر.. يشبه الجرادة.. عيناه ضيقتان حمراوان غائرتان.. وهو لا يكف عن وضع أصابعه فيهما بين لحظة وأخرى ويفركهما بشدة.

وركبنا عربة بالأجرة أخذتنا إلى الأرض.

واستقبلنا الخفراء بإطلاق النار فى الهواء.

وتجمع الفلاحون حولنا.. وكادت يدى تنخلع من كثرة المراحب والسلامات.

وكان الجو صحواً والسماء صافية.. ولكنى كنت أشعر بانقباض.. كانت الوجوه التى تبتسم حولى هضيمة كالحة غبراء.. وكانت ابتسامتها شاحبة.. وكان فيها شىء ثقيل.. مثل التراب الذى فى الجو.. والجفاف والسخونة والهواء الراكد.

ودخلنا الاستراحة.. وكان الخفراء ما زالوا يطلقون النار فى الهواء والحمام يطير فى فزع من أبراجه ويحلق فوق رءوسنا.

وكان سركيس أفندى مازال يثرثر ويتكلم كلاماً كثيراً.. يقطعه بين حين وآخر هاتفا..

إن شاء الله تكون مبسوط..

وجلست أدخن وفتحت الدفتر أمامى.. وجرت عينى على السطور.

١٢ نفر لعزيق الفدان قمح بواقع ١٢ قرش يومية للنفر.. المجموع ١٤٤ قرش..

٦ أنفار لسقية الفدان بواقع ١٢ قرش للنفر.. المجموع ٧٢ قرش.

٣ أكياس سماد للفدان بواقع الكيس ٥ جنيه.. المجموع ١٥ جنيه.

احتياجات الماكينة عن أربع سقيات للفدان ٤ جنيه.
أجرة مشال المحصول للجرن بالجمال ١٢٠ قرشاً.
أموال مقررة.
٢٥٠ قرش رسوم بلدية.
١١٠ قرش ضريبة جراد.

ومررت على الأرقام بعينى عدة مرات.. دون أن أفهم شيئاً. وخرج سركيس أفندى إلى الحقل ليحضر فرساً أركبه.. وبقيت وحدى مع عوضين الفلاح الذى يفرك عينيه.

سألته: لماذا يفرك عينيه هكذا فقال إنه ذهب إلى الدير البارحة وأخذ تراباً من كنيسة العدرة وضعه فى عينيه.. ثم ابتسم وأردف:

– دى الحمد لله كتير.. دى كانت وارمة البارحة زى عين الجمل.. قدس أبونا هو اللى طيبها..

ولم أجد كلاما أرد به على الرجل.. وعدت أقرأ الحسابات..

١٠ أنفار لرمى الكيماوى بواقع ١٢ قرشا يومية للنفر.. المجموع ١٢٠ قرش للفدان.

نصف أردب قمح تقاوى بمبلغ ٣ جنيه..

وتنحنح عوضين.. وفرك عينيه وسعل.. وهمهم..

– طيبون.. دى الصعيد نورت.

وسكت قليلا ثم أردف:

- أنا لى مصلحة عندك يا سعادة البيك ربنا يخليك.

- خير.. يا عوضين.

ورفعت رأسى من الدفتر ونظرت إليه..

- والله بدى كام فدان أأجرهم منك السنة دى عشان الزرعة الشتوية.

- أنت مش بتشتغل عندنا..

- لا والله. أنا مأجر كام فدان جاركم فى حوض أحمد بك.. وبالى أزرع كام فدان عندكم السنة بالإيجار.

- نأجر لك يا عوضين.. أما ييجى سركيس أفندى.. نشوف.

- ربنا يخليك يا سيدنا البك.

وخطر لى أن أسأله عن الزراعة.

والزراعة حالها كويس السنة دى يا عوضين.. محصول القمح إزيه.

- عال والحمد لله.. البركة فيك.

- رميت كيماوى قد إيه فى الفدان؟

- كيس.. الخمس فدادين خدوا ١٥ جنيه كيماوى.

- وكنت مشغل أنفار كتير..

- ثمان أنفار فى الفدان.

وكنت أنظر فى الدفتر وأقرأ الأرقام العالية التى كتبها سركيس أفندى..

كان من الواضح أنه سمسر فى كل عملية على أساس أنى لا أفهم شيئا فى الزراعة.

وأغلقت الدفتر.. وأنا أفكر فى حل..

وحضر سركيس أفندى ومعه الفرس وركبته وانطلقت.. وتجولت فى الغيطان المجاورة أسأل الفلاحين.. وتأكد لى أن الخولى يسرق منى.. ومن عرق الفلاحين.. ومن كل حبة قمح وعود قطن.

وعدت وقد صممت على شىء.

ناديت الخولى وأمرته بأن يسلم عهدته إلى عوضين..

وقلت لعوضين.. إنى سوف أعطيه خمسة فدادين يزرعها لنفسه فى مقابل إشرافه على الأطيان وعمله كخولى عندى.

وبهت سركيس أفندى ولم يتكلم.. ودعا لى عوضين بطول العمر..

وانصرفت إلى البندر وأنا أشعر براحة. وأحس بأنى رددت الأمور إلى نصابها.

ونمت فى اللوكاندة..

ولكنى تيقظت فى الفجر على البعوض يأكل وجهى.. وعلى خبر مفاجئ سرى فى كل البلدة.. إن عوضين وجد مقتولا فى حقله. والفاعل مجهول.

وحضر سركيس أفندى فى الصباح إلى اللوكاندة.. وكان يحمل طبنجة على صدره.. ويصاحبه خفير الغيط.

وقال لى إن عوضين وجد مقتولا.. الأشقياء قتلوه على تار بايت مسكين عوضين..

وأردف وهو ينظر إلى نظرة جامدة.

- تشوف حضرتك نعين مين خولى بدله عشان يشوف الأرض؟

- اللى تشوفه يا سركيس أفندى.

- أمرك يا سعادة البك..

وعاد ينظر إلى نظرته الجامدة الجافية وعيناه لا يهتز لهما رمش.

وأجبته وأنا أتجنب النظر إلى عينيه:

- شوف أنا يا سركيس أفندى.. بس خد بالك من الحسابات شوية.

- أنا محسوبك يا سعادة البك.

ودار على عقبيه وخرج..

وظلت خطواته تلاحقنى وتدوى فى أذنى مدة طويلة..

وأدركنى اليأس..

ولم أستطع أن أبرئ نفسى من الجريمة.

لقد قتلت رجلا..

بعد ساعة من وصولى الصعيد قتلت رجلا..

وتذكرت كلام الخواجة مترى..

إن الأرض هى لحم الفلاح.. والذى ينتزع من الفلاح أرضه ينتزع لحمه.. ولا فائدة من أن تقول للفلاح أنت تخرق القانون.. فماذا يعنى القانون بالنسبة لرجل جاهل..

إن رجليه تغوصان فى الطين.. وحياته ينهش فيها المرابى وبنك التسليف والمالك والمستأجر وسركيس أفندى.. كل واحد يطلق عليه الرصاص.

* * *

ومر يومان على إقامتى بالصعيد.

النتيجة على الحائط تقول إنى فى عام ١٩٥١.. ولكن كل شىء حولى يمشى ببطء جدًّا.. عشرات السنين وراء التاريخ.

القسوة فى كل مكان.. فى الحر.. فى التراب.. فى الجفاف.. فى الأرض.. فى الفيضان.. فى الوجوه.. فى العيون.. فى الثمن الذى يدفعه كل إنسان فى مقابل اللقمة..

الفلاح الذى يمرض مقدماً بالبلهارسيا والملاريا والرمد قبل

أن يعى وجوده.. ثم يمشى يلهث ويجر قدميه.. ويعزق.. ويحرث.. ثم ينازعه جاره على قيراط برسيم ويقتله..

والفلاح الآخر المحظوظ الذى يملك فداناً ويعيش كالجرادة على حافة الترعة.. لا يعرف السينما ولا الساعة ولا الدكتور.. ثم يضع حفنة من تراب العدرة فى عينيه.. ويعطيه رجل مبروك حجاباً يعلقه على صدره ليشفى.. بينما يذهب المبروك ليداوى عينيه فى القاهرة عند طبيب العيون.

والتاجر الريفى العبيط الذى ينظر إلى البورصة كما ينظر إلى السماء والقدر وكرامات الأولياء.. ويفلس بغباء.. ويموت بغباء كما يموت حماره دون أن يعرف السبب.

وابن العمدة الوارث الذى ينفق أمواله على راقصة فى مصر ويموت من الخمر والمخدرات.

كل هؤلاء ينبحون ويتعاوون.. كأنهم فى غابة.

قسوة الحياة تبتز أرواحهم.. وأخلاقهم.. وتحولهم إلى أجلاف غلاظ.

وقد أحسست بهذه الغلظة تتسرب إلى وتدفعنى إلى رفع صوتى بالسباب والشتائم.

سنة واحدة أعيشها هنا.. وأصبح مثلهم.. أتكلم بغلظة.. وأقتل وأسرق وأنهب..

لقد نسيت ذقنى فلم أعد أحلقها.. ونسيت هندامى.. ورباط عنقى.

ونسيت الرجل الذى قتل من أجلى.. عم عوضين.. الذى أطلقوا عليه الرصاص.. لأنى اخترته ليدير زراعتى.

من الذى قتل عوضين!!

سركيس أفندى؟!

الخفراء بتحريض من سركيس أفندى؟!

أنا بغبائى!!

الفدادين التى جئت من القاهرة لأجمع إيرادها؟!

الحر.. التراب.. الجفاف..

لقد قيدوا الحادث فى دفتر البوليس ضد مجهول.. ولكنى أرى المتهمين جميعاً.. وأنا أحدهم.. ليس فيهم مجهول واحد.

ليس لى أن أتحدث عن الغلظة..

إن القتل عمل غليظ فعلا.. ولكن تناول النقود المغمسة بالدم وإنفاقها فى هدوء فى بارات القاهرة بين الرقص والضحك.: عمل أشد غلظة..

وشعرت باليأس.. وبالنفور..

وشعرت بغلظة هذه التجارة التى تأتينى أرباحها كل عام..

وشعرت أنى شريك فى كل الجرائم التى حدثت فى زمام العنانية.. منذ أن وضعنا يدنا عليه.

* * *

وعند الظهر.. كان سركيس أفندى يتجول بى فى غيط القطن فى مظاهرة من الأولاد الصغار الذين يجمعون القطن ويغنون.. وكان يحاول أن يطلعنى على حسن إدارته وحزمه.. يطارد الأولاد ويشخط فيهم ويجرى خلفهم بعصاً قصيرة من الخيزران.. ويضربهم.. وكانت الشمس مشرقة فوق رءوسنا.. تلسعنا بشواظ من نار..

وأغمى على أحد الصغار من طول وقوفه فى الشمس وحملوه إلى الترعة ليرشوا على وجهه الماء.. وكانت يده النحيلة مضمومة إلى صدره تقبض على كسرة خبز جافة.

واكتفيت بما رأيت.. ولم أنتظر نزول المساء.. وأخذت قطار العودة إلى القاهرة.. وقد صممت على أن أطلق هذه الأرض إلى الأبد..

* * *

وكان أول شىء فعلته حينما وصلت القاهرة أنى كلمت نانى لأقول لها:

– سوف أترك الأرض نهائيًا.. سوف أبيع فدانين وأفتح

ورشة لإصلاح السيارات أعمل فيها كمهندس.. عملى الوحيد الذى أتقنه.

أنا لا أنتمى للأرض.. ليست لدى الشجاعة لأقتل وأسرق..

إن رؤية القسوة ترهقنى.. والاستمرار فى هذه الحياة التى اختارها أبى لنفسه مستحيل.. مستحيل.. بالنسبة لى..

– وحياتك.. والمستوى المادى الذى تعيش فيه.. كيف تترك ثروتك.. ولمن تتركها؟

– إنى لا أتركها.. إن الفلاحين يضعون يدهم عليها.. يستأجرونها ولا يدفعون مليماً.. ولا أستطيع أن أقاضيهم.. لقد تعبت.. تعبت من المناظر التى رأيتها..

– أنت طيب أكثر من اللازم..

– لست طيباً.. ولكنى لا أستطيع.. لا أستطيع أن أكون شيئاً آخر غير نفسى.. أفضل أن أعيش حياة صغيرة أملكها.. عن أن أعيش حياة كبيرة تملكنى.. أريد أن أكون حرًّا.. أريد أن أقطع صلتى بكل ما يفرض على واجبات لا أحبها.. أنا أكره الواجبات كلها.

– وهل تستطيع الخلاص من واجباتك كلها.. إنى أحاول الخلاص من واجباتى الزوجية منذ سبع سنوات ولا أستطيع.. لا أستطيع سوى أن أجن فقط.. الجنون هو الشىء الوحيد

الذى وصلت إليه.. وأنا لا أريد لك أن تجن مثلى.. تستطيع أن تتخلص من أرضك.. ولكن ستبقى هناك واجبات على كتفيك لا خلاص منها.

- نانى أرجوك ساعدينى.. لا تسدى أمامى المنافذ.. لا تبنى فى وجهى حائطاً غليظاً.. هات يدك لنحفر معا حفرة فى الجدار نهرب منها إلى عالم نحبه.

- نهرب إلى أين.. أنت تحلم.

- لا توقظينى إذن.. دعينى أحلم.. دعينا نحلم معاً.. نانى أرجوك.

- يا حبيبى..

- نانى..

- يا حبيبى..

- أريد أن أستريح. أن أضع رأسى على صدرك وأستريح.. أن أجد نفسي بين ذراعيك.. أن أشعر بلحظة رضى.. أنا ألهث من التعب هارباً من عالم لا أعرفه.. ولا أحبه.. إليك أنت..

- يا حبيبى..

- تعالى يا نانى..

وسكتت.. وسمعتها تبكى..

٨

كنا وحدنا أنا وهى..

وكنت أنظر فى عينيها فى شغف.. ولا أشبع.. وأتطلع فى ملامحها الدقيقة.. وتعبيرات وجهها.. وخلجاتها.. وأستشف نفسها.. وأهيم فى وجودها وأندمج فيه فى استمتاع وتلذذ عميق.

وكانت نظراتنا تتماسك ويتشبث بعضها ببعض.. ويلوذ بعضها ببعض.. وتسعى كفى إلى كفها الصغير لتأخذه وتنضم عليه فى حنان..

ثم أرفع يدها إلى شفتى أقبلها. وتنام شفتاى فى باطن يدها..

وأشعر بها تقبلنى فى خدى.. وأشعر بشفتيها تبحثان عن شفتى وهما ترتجفان..

وتلتقى شفاهنا فى فرحة.. ونغيب عن وعينا.. وعن الدنيا. ونذوب فى بعض.. فى فيض من النشوة.. منتهى النشوة..

أحبك.. أحبك جدا.. أحبك طول عمرى.. أحبك إلى أن أموت وبعد أن أموت.. وقبل أن أولد.. أحبك.. أحبك.. وما لزوم الكلام والشعور يخنقنا.. يسكتنا..

نانى. أنا لا أريد شيئًا سواك أنت.. سوى هذه اللحظة.. أنا لا أريد أن أتيقظ على هذه اللحظة وقد انتهت إنى أجد فيها سبب وجودى.. لقد خلقت من أجل هذه اللحظة.. خلقت لأكون لك.. نانى.. هذه لحظة تبدأ من عندها أفراحى وآلامى..

وتلتقى شفتانا فى فرحة.. فى لذة..

هل أنا أحلم.. قبلينى لأفيق.. بل قبلينى لأحلم أكثر..

- يا مجنون.. يا مجنون.

- أنا لست مجنونًا.. أنا كأعقل ما أكون طول عمرى.

- إذن فأنا المجنونة.. أنا.. أنا..

- أنت حبيبتى.

- يا حبيبى يا مجنون..

- فيم تفكرين؟

- أفكر فى أنى ولدت من جديد.. وأنى أعيش معك فى عالم ليس فيه سوانا.. عالم لا ينظر إلينا فى حسد وحقد.. عالم لا يوقظنا من سعادتنا.

- لا أهمية للعالم ما دمنا معًا.

وأمسكت بى فى خوف وهى تتحسسنى لتتأكد من وجودى بجوارها وهمست:

- لماذا تتأخر الآمال هكذا دائمًا.. لماذا تسقط الأمطار بعد أن يموت الزرع من الجفاف؟

- إن الزرع لم يمت. إنه ما زال يانعًا مخضرًا..

وبكت على كتفى وهى تقول بصوت متهدج:

- يا وهمى الجميل.. يا وهمى الجميل..

- أنا لست وهمك.. أنا حقيقتك.

- أبداً.. أنت وهمى.. أنا لا أستطيع أن أمسك بك.. أنت تفر منى.. لا أجدك بجوارى..

- أنا بجوارك دائمًا.

- أنت فى وهمى.. فى قلبى.. فى مهجتى.. وسواد عينى.. ولكنك لست فى بيتى.. لست فى واقعى.. عرق كفيك ليس فى الفراش الذى أنام فيه.. شعرات رأسك ليست على وسادتى.. ثيابك ليست مع ثيابى فى سلة الغسيل.. بقايا الخبز الذى تأكله ليست على مائدتى.. قصاصات الورق التى تتخلف منك لا أجدها على أرض غرفتى.. ولدك ليس منى.. وولدى ليس منك.. صوت سعالك الحاد لا أسمعه فى حجراتى الباردة.. أنا أعيش فى غربة.. أعيش على وهم وجودك على أمل رؤيتك.. هل تعرف كيف أحبك.. هل

تعرف كيف تحب المرأة الرجل.. إنها تحلم أن تكون سكنه وطعامه وشرابه.. تحلم بأن تجمع شتاته على راحتيها..

إن الرجل يلثم المرأة فى شفتيها ثم يمضى فى طريقه.. أما المرأة فهى تعيش فى تلك القبلة..

أتعرف لماذا أتيت معك إلى هنا.. لأتزود من وجودك بمؤونة أعيش بها. لأزود وهمى بثروة من الخيالات يتغذى عليها بقية حياتى.. لأتذكرك أكثر.. وأتعرف عليك أكثر.. وأخاطبك فى لحظات وحدتى وصمتى ولكنى لن أعود إلى هنا.. لن أعود إلى لقائك أبدًا.. لأن هذا ليس حبى.. ليس أنا.. ليس أنا.

وأخذت تهزنى بشدة.. وهى تكرر كلماتها بصوت متهدج.. هذا ليس حبى.. ليس أنا.. لن أعود إلى هنا أبداً.

ثم انفجرت تبكى بمرارة..

وصرخت وأنا أضمها إلى صدرى فى حنان:

– سوف نتزوج.. سوف نتزوج.. سوف أطلق زوجتى.. وأتزوجك بعد أن يطلقك زوجك.

ونظرت إلى فى فزع هاتفة بين دموعها.

– مستحيل.. مستحيل.. هذا هو المستحيل.. لا أستطيع.. أبدًا..

– ولماذا لا تستطيعين.. ألا تحبيننى..

وهمست في ضراعة:

- نانى.. نانى.

- أخاف من الله.. ومن رجلى.. ومنك.. ومن عيون أولادك.. ومن عيون أولادى..

- كل هذا لن يمنعنى.. ولن يمنعك..

- هناك شيء فوق كل هذا يمنعنى أنا..

- ما هو؟

- نفسى.. أخاف من نفسى.. إن الماضى يتغلغل فى حواسى.. أنا لم أتزوج زوجى كرهًا ولا غصبًا.. لقد ارتضيته.. صحيح أنى لم أستطع أن أحبه.. ولكنى عاشرته.. إن الرجال لا يعرفون العشرة كما تعرفها النساء.. لأنهم يعيشون كل وقتهم فى الشارع.. ولكن العشرة تتغلغل فى الحواس.. فى الدم.. فى اللحم.. إنى لن أكون خالصة لك.. سوف تعود حياتى كلما دق علينا ولدى الصغير باب غرفة النوم.. وكلما تطلع إلينا بعينيه الواسعتين فى تساؤل.. لن أستطيع أن أسكته حينما يقول.. بابا..

إنه أفعالى التى تلهث خلفى..

وسكتت لحظة ثم رفعت وجهها وقالت:

- وأنت كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق.. كيف تواتيك القوة لتنظر فى عينيها وأنت تلقى عليها اليمين.. وحينما يمسك

الطفل بذيلك وأنت خارج.. كيف ستجد القوة لتنفض يده الصغيرة عن ثوبك.. إنه أفعالك التى فعلتها.. كيف تنكرها؟

– لقد حدث كل هذا خلسة دون أن أدرى.

– ولكنه حدث..

– سوف أتحدى الدنيا كلها لأحصل عليك..

– سوف تتحدى الدنيا كلها.. ولكنك لن تستطيع أن تتحدى نفسك.. لن تستطيع أن تتحدى أفعالك.. إن أفعالك هى ذراعاك.

– سوف أقطع ذراعى لأصل إليك..

– لا أحب أن أراك مقطوع الذراعين.. لقد أحببتك فى كمالك وعذابك وضعفك.. ولم أحبك وأنت تقسو وتقتل وتقطع رحمك وأوصالك.. سوف تصبح رجلا آخر.. وسوف أصبح امرأة أخرى ولن يتعرف كل منا على صاحبه.. سوف نكون شريرين ينتقم كل منا من الآخر..

– سوف أحبك إلى الأبد مهما حدث..

– أما أنا فأعلم جيدًا ماذا سوف أفعل إذا تزوجتك..

– ماذا ستفعلين؟

– سوف أنتقم منك.

– أنت مجنونة.. أنت مجنونة.

– أنا لا أستطيع أن أخون نفسى.. إنى أحبك بنفسى..

وأتقرب إليك بروحى وأعشقك من خلال روحى.. ولو خنت روحى فسوف أخونك وأخون الدنيا..

- أنت لا تحبيننى.. أنت تكرهيننى.

وبهتت لهذه الكلمة تخرج من شفتى ونظرت إلى صامتة وبكت..

وأمسكت بها من كتفيها. ورحت أقبلها فى كل مكان من صدرها وأهتف..

- لن يكون فى الدنيا حب إذا لم نتزوج..

- ليس فى الدنيا حب..

- لا تقولى هذا يا نانى..

- إن الحب فى قلوبنا وليس فى الدنيا.. إنه فى وهمنا فقط.. إن الدنيا لا تحتمله.. ولا تستطيع أن تحققه.

- لا تقولى هذا الكلام.. إنى أختنق حينما أسمعك ترددين هذا الكلام..

- إن الواقع هو الذى يخنقنا جميعًا.. إن الحب فى قلوبنا عميق.. عميق.. ولكن الحب فى الواقع يختنق بالشهوة والغيرة والأنانية والمصلحة، والعادة والملل والضجر وأنا لا أريد أن أخنق حبى لك بالواقع.. أريد أن أحتفظ به فى وهمى وأغذى به خيالى..

- سوف تكونين سكنى وبيتى وحياتى..

– لقد فات الأوان.. لقد سقطت الأمطار بعد أن جف الزرع لا تعذب نفسك وتعذبنى معك.. ولا تثرثر كثيرًا كالأطفال الصغار.. انظر إلى.. احتضنى بذراعيك.. دعنى ألمسك هكذا.. دعنى أتملى بالنظر إليك.. دعنى أتزود بمؤونة أعيش عليها العمر كله.

وأخذت تنظر إلى فى هيام.. وكان فى عينيها فزع.

كانت فى عينيها نظرات امرأة تودع شيئًا لن تراه..

وأصابتنى عدوى الفزع الذى يطل من عينيها.. وأمسكت بها أهزها.

– إننا سوف نلتقى مرة أخرى.. سوف نلتقى كل يوم.. كل لحظة.. أليس كذلك.

وأجابت فى نبرة جامدة ثابتة وهى تنظر فى وجهى:

– إننا لن نلتقى..

– مستحيل.. مستحيل.

– أنا لا أحب هذا اللقاء المسروق.. إنه ليس حبى ليس أنا.. ليس أنا..

– سوف نتزوج.. ونحقق الحب الكبير الذى تحلمين به.

– إن حبى يتحقق فى قلبى وحده.. فى وهمى.. إن كل الأمكنة تضيق به.. وكل الحلول تضيق به.. إنه المستحيل الذى أحتضنه فى

ضلوعى.. وقد ضاقت الدنيا به على رحابتها..

وانهارت تبكى.. وكل جسمها يرتجف..

ونظرت إلى من خلال دموعها.. وغمغمت..

– لماذا أعذبك.. لماذا تركتنى أعذبك هكذا.. لماذا لا تقتلنى؟

– نانى.. كفى هذيانًا..

– لماذا لا تقتلنى..

ونظرت إلى.. نظرت إلى فى شوق طفلة.. وهى تتعشقنى بنظراتها.

– هل عندك حل؟

– الحل هو أن أتزوجك.

وضحكت ضحكة هستيرية وغمغمت:

– أيها العجوز. إنك لا تصلح زوجًا لى.. إنى أرفض أن أتزوجك.

وقبلتنى فى جبينى وهى تقول:

– أريد أن أحفظ هذه الخطوط الرفيعة التى فى جبينك خطًّا خطًّا حتى أتذكرها كلها وأنا وحدى.. وأستحضر صورتك فى خيالى.. وأراك أمامى هكذا.. وأنا جالسة وحدى فى البيت أرتجف من البرد.

- ناني.. لماذا جئت معي إلى هنا.. لماذا تقولين هذا الكلام..

ونظرت إلى.. ولم تتكلم.. وضحكت ضحكة غريبة يمازجها البكاء.

- لماذا فعلنا كل ما فعلناه.. لماذا تمسكين بيدى هكذا.. كأنك تعتصرينها..

- أريد أن أتخلل يديك لأصل إلى روحك.. أريد أن أستولى على روحك.. أريد أن آخذ روحك..

وضحكت فى حزن:

- أنت تعذبيننى..

- الدنيا هى التى تعذبنا.. الدنيا هى التى خدعتنا.. الدنيا أدخلتنا فى غرفة مظلمة لنختار ملابسنا.. فلم نستطع أن نتعرف على ثيابنا فى الظلام.. وخرجنا كل واحد يلبس لبسًا غير لبسه.. ثم تمزقت ملابسنا من ضيقها.. وبليت هدومنا الحقيقية من طول وضعها على الرف.. وفى النهاية لم تبق لنا ثياب نستتر بها أنفسنا.

- سوف نفصل لأنفسنا ثيابًا جديدة.

- سوف نفصلها من الخرق القديمة.. ولن تسترنا إلا لحظات ثم تتمزق ثانية..

- ناني.. لماذا تتكلمين بكل هذا اليأس؟

- لأنى لا أجد حلا..

- ولكنك تجدينني إلى جوارك.. أليس كذلك..

ونظرت إلى فى ارتياب وأخذت تتحسسنى لتتأكد من أنى موجود فعلا.

- نعم.. هذا أنت كلك حولى.. كلك حولى..

وامتلأت عيناها دموعًا.

ودقت ساعة الحائط عشر دقات.. فرفعنا رأسينا فى وقت واحد فى فزع..

- الساعة بلغت العاشرة.. لقد سرقنا الوقت.. يجب أن أعود حالا.

وكانت الدقة الأخيرة ما زالت تدوى فى أذنى.. وكان صوتها كئيبًا، ووقفت تسوى ثيابها وتصفف شعرها أمام المرآة.. وكانت تعطينى ظهرها.. وكان قلبى يهبط.. ويهبط فى ضلوعى.. حتى يصل إلى قدمى.. وأسرعت إليها أحتضنها.

- لاتنزلى الآن..

- كيف؟

- ابقى لحظة. أريد أن أكلمك قليلا..

- ماذا تريد؟

- أريد..

وتلعثمت.. ولم أعرف ماذا كنت أريد؟

كنت أريد أن أقول أى كلام لأحتفظ بها أطول وقت أمامى.. أتطلع إليها.. وأشم عطرها.. وأرى شفتيها وهما تنفرجان.. وأرى عينيها. وهما تمتلئان بالشوق..

كنت أريد أن أسمع صوتها.. وهى تجاوبنى بأى كلام.. وقلت لها فى أسى:

- نانى.. لا أريد أن أحس أنى سوف أفقدك.. إن هذا الإحساس يقتلنى.. يقتلنى..

- إنك لن تفقدنى.. سأعيش لك دائمًا.

- هل هذا صحيح؟

- لا يوجد شىء صحيح فى حياتى غيرك أنت..

- ولكنك ذاهبة الآن.. أليس كذلك؟

- أينما ذهبت فسوف تكون معى.. فى كل بيت أدخله.. وفى كل كتاب أفتحه.. وفى كل نغمة أعزفها.

- لاأريد.. لا أريد هذا اللقاء.. أنا أريدك أنت لحمًا ودمًا..

ونظرت إلى فى إشفاق.. ولم تتكلم..

وخلف العينين المشفقتين.. كانت تطل الحيرة.. حيرة لا حد لها.

كانت تسألنى بعينيها.. ماذا أستطيع أن أفعل يا حبيبى.. أنا أحبك وأريدك.. وأتمناك.. ولكن ماذا أفعل.. كانت تتشبث بى

فأتقطع فى يديها.. ولا تجدنى ولا أجدها.. وكلانا ممسك بالآخر.

كنت أقرأ كل هذا فى عينيها.. وأنا أنظر فيها.. ويدى مطبقتان على يديها..

ولم أجد شيئًا أقوله..

وصحبتها فى عربتى..

ولبثت صامتاً طول الطريق..

كنا سجينين نحن الاثنين.. سجينى عاطفة لا تستطيع الخروج فى النور.. عاطفة تلوذ بالظلام.. عاطفة تعاقبنا على السعادة التى نسرقها بالسجن.. والحياة فى الخفاء فى فزع.

وكنت أتساءل.. لماذا نعاقب فى جهنم.. والعذاب يتعقبنا على الأرض؟

الجزاء يلحق بنا لحظة بلحظة.. قبل أن نلتقط أنفاسنا.

وكنت أشعر بالضيق.. وبالحزن.. وبأنى مظلوم.. وأحسد الفضلاء على السكينة التى يعيشون فيها..

كنت أتعذب..

ولم أجد ما أبثه سخطى سوى العربة الحديد التى أركبها.. فضغطت بقدمى على البنزين وانطلقت أطير فى سرعة خطرة.. وكان الإحساس بالخطر يريح أعصابى.. ويسكت الضجة التى فى دماغى..

وكانت نانى تتشبث بذراعى فى خوف..

- ماذا دهاك.. لماذا تسرع هكذا.. هل تريد أن تنتحر.. هل تريد أن تموت؟

هل أريد أن أموت؟ ربما..

- هل تحبين الحياة؟

- نعم أحبها.. لأنك فيها.

- هل تجزعين من الموت إذا متنا معا؟

- لماذا تقول هذا الكلام. أنت تفزعنى..

ونظرت إلى بعينين واسعتين يغمرهما الحنان..

وارتاحت نفسى وأنا أنظر إليها.

وكنا قد اقتربنا من البيت.. فهدأت من السرعة.. وتوقفت..

وكانت هناك عربة أخرى قادمة من الأمام..

وأضاءتنا بكشافاتها..

وهمست نانى فى ذعر.. إنه عزيز زوجى..

ونزل عزيز من العربة.. ووقف ينتظرنا.. وكانت تبدو عليه الدهشة.

٩

لم أبرح البيت طوال ثلاثة أيام.

عصفت بى حمى ألزمتنى الفراش.. ولبثت أهذى.. وأتلوى من آلام حادة فى عظامى.. وأتقلب فى طوفان من اللهب.. ثم بدأت أفيق..

وسكنت روحى مثل شراع ألقت به الريح على شاطئ مهجور.. وفتحت عينى لأجد زوجتى واقفة عند رأسى.. وفى يدها كوب من الليمون.. وعيناها واسعتان.. مثل بحر من العسل ملىء بالحنان..

وأراحت رأسى على كفيها لتسقينى.

ونظرت إلى عينيها.. وخارت قواى..

ورنت فى أذنى كلمات نانى.

كيف تواجه زوجتك بكلمة الطلاق.. كيف تواتيك القوة لتنظر

فى عينيها وأنت تلقى عليها اليمين.. كيف تجد القوة لتنزع ولدك الصغير من ثوبك وهو يتشبث بك عند الباب.. إنه فعلتك التى فعلتها..

إنك تستطيع أن تخون الدنيا كلها.. ولكنك لا تستطيع أن تخون نفسك.. لا تستطيع أن تنكر فعلتك..

إنك حينما تخون نفسك تخوننى.. فأنت تحبنى بهذه النفس.. وتعشقنى من خلالها.. مستحيل.

ونظرت إلى زوجتى.. ورأيت المستحيل..

رأيت المستحيل فى البحر الساذج الحنون فى عينيها.. وسمعت صوته فى بكاء ولدى.. وهو ينادينى..

وتذكرت كلمات نانى.. وأنا أقول لها.. سأتزوجك.. سأحقق الحب الكبير الذى تحلمين به.. وهى تجاوبنى فى ضعف:

- إن حبى يتحقق فى قلبى وحده.. فى وهمى.. إن كل الأمكنة تضيق به.. وكل الحلول تضيق به.. إنه المستحيل الذى أحتضنه فى ضلوعى..

كنت أشعر بهذا المستحيل فى تلك اللحظة..

كنت أشعر بإرادتى تتكسر على عينى زوجتى وهى تنظر إلى ورغباتى تذوب أمام عربدة ولدى الصغير وهو يضع يده فى كمى..

ماذا أفعل أمام البراءة..

كيف أنظر إلى البراءة فى عينيها وأصفعها..

لا يوجد حل سوى أن أطوى ضلوعى على المستحيل.. وأعيش به وحدى فى الظلمة.. أسجنه معى.. ويسجننى معه..

يئست تمامًا..

وكانت زوجتى تحدثنى فى نبرة أسى:

– هل سمعت الصراخ أمس؟

– أى صراخ..

– لقد كنت محمومًا..

– ماذا حدث؟

– لقد تشاجر عزيز مع زوجته وضربها وكسر ذراعها..

وسقطت الكوب من يدى.. وغامت عيناى.. وأظلمت الدنيا أمامى فترة.

وأفقت لأجد زوجتى تدلك خدى.. وتربت على شعرى.. ولم تفطن إلى سبب ألمى.. لأنها عادت تقول فى حزن:

– مسكينة نانى.. إن زوجها رجل متوحش.

ومسكين أنا أيضًا.. ياليتها تعلم كم أنا مسكين..

* * *

وفى الظهر تلقيت هذا الخطاب من نانى:

أكتب لك بيدى اليمنى. ويدى اليسرى فى الجبس.. شكرًا لله.. إنه أبقى لى يدًا سليمة أكتب لك بها.

لقد ضربنى زوجى وكسر ذراعى.. مسكين أنا لا ألومه.. ولكنى ألوم نفسى.. فقد كنت قاسية فى معاملته..

أرهقنى بشكوكه وأسئلته وسبابه وفظاظته وغلظته.. حتى جن جنونى وتطاولت عليه.. ففقد صوابه وهجم على كالوحش.. وأخذ يضربنى حتى كسر ذراعى..

ليته أتى على البقية الباقية منى.. لاسترحت.. ليته أسكت قلبى الذى يهتف باسمك..

إن وجودى يرهقنى..

إن عواطفى تصرخ.. وأنا عاجزة عن ضبطها.. عاجزة عن إطلاقها.. أسير فى الحياة كدمية مشطورة نصفين.. تائهة مترددة.. نصف ثائرة نصف مستسلمة.. أقوم بأفعال لا أقتنع بها.. وأقتنع بمبادئ.. لا أعمل بها.. ضائعة.. ضائعة تمامًا.. أملى الوحيد مستحيل.

لقد ظللت أفكر بعد أن افترقنا.. كيف أوتيت الجرأة لأفعل كل هذا.. كيف خرجت من بيتى لأقابلك.

كيف جرؤت..

ولكنى الآن أعرف كيف حدث هذا.

إن العذاب الذى أعيش فيه أفقدنى القدرة على التمييز.. كنت كالمحكوم عليه بالإعدام الذى أباحت له المحكمة أن يطلب طلبًا قبل أن يموت..

لقد أهدرت الظروف السيئة حياتى.. واستباحت دمى.. وطاردتنى حتى سلم المقصلة..

ماذا هناك أكثر من أن تقطع رأسى.. لا شىء..

وطلبت أن أراك..

طلبتك قبل أن أموت.

طلبتك وأنا أختنق فى غرفة الغاز.

وأحسست لفترة وجيزة أن أى شىء من حقى.. أى شىء.. حتى أنت..

آه.. يا إلهى..

إنى أستطيع أن أخاطبك أنت وحدك.. ولكنى لا أستطيع أن أخاطب الناس..

أنت وحدك الذى تفهمنى لأنك مطلع على داخلى.. لا أحد يفهمنى سواك..

أنا ساقطة فى نظر الناس..

ولكنى أعيش فى جهنم..

جهنم.. هى حياتى..

لقد دفعت ثمن خطيئتى فى الدنيا.. ونفذت العدالة أمرها فى مصيرى..

انتهى أمرى..

لقد عوقبت وأعاقب كل يوم وكل لحظة.. بل أنا العقاب نفسه..

إن الخطيئة شقائى وليست لذتى.

إنى أحسد الفضلاء..

إن الفضيلة أمان وسكينة وحرية وسعادة..

إنها الجنة.. إنها مكافأة جميلة.

أنا أعجب للفضلاء ينتظرون أن يكافأوا على فضيلتهم بالجنة. إنهم فى الجنة فعلا.

* * *

يا حبيبى..

أجمل شىء فى هذه اللحظة أنى وحدى.. لا شىء معى سوى خيالك.

أتمثلك أمامى بقامتك الطويلة.. ووجهك الأسمر الرقيق.. وعينيك الحائرتين وهما تتدفقان حنانًا وطيبة.. وأسمع صوتك الأجش.. ونبراتك الرحيمة.. وأعيش فى انسجام مع روحك.. أتملى

برؤية نفسى فى مرآتك.. فى كلامك.. وخطواتك.. ولفتاتك.. وضحكاتك.

الساعة التى قضيتها معك.. تزودنى بزاد من الموسيقى لا ينفد.. يملأ وحدتى بالأنغام.. ويكشف لى جمالا خفيًّا وراء كل شيء.. أتنسمه بحواسى فى لذة.

فكرت كثيرًا لماذا أحبك كل هذا الحب.

لم أعرف..

ربما لأنك حريتى..

ربما لأنك إرادتى التى فرحت بها لأول مرة وأنا أقتحم بها الظروف، وأحطم كل ما حولى من خير ومن شر لأصل إليك..

ربما لأنك أنا.. وقد ظفرت بك.. وبنفسى فى ذات الوقت..

ولو أننى قد اخترت زوجى بكامل حريتى.. لما أحببتك.. ولما عرفتك..

أنانية..

ولكن لا..

إنها ليست أنانية إلى النهاية.

هناك سر آخر..

سر فى الدنيا.. كشفت لى عنه فأصبحت أحبها.. وأشعر بجمالها وأهتز لنسماتها.. وأتلذذ بالحياة فيها..

سحر خفى فى الوجود دلنى عليه حبك..

ما أكثر ما يستطيع الحب أن يفعله.

إنى أتذكر حال زوجى منذ سنوات حينما كان يحب أختى.. كيف كان يضيء بشفافية حلوة.. وكانت أساريره تضحك فى طلاقة.. وحركاته تنساب فى خفة ومرح..

وأتأمله الآن.. وهو ثقيل معتم جامد غليظ.. يتحرك فى لزوجة وبطء.. الكراهية تشيع فى جسمه كما تشيع الرطوبة فى المفاصل.. كيف أشعر أحيانًا وهو ينظر إلى.. إنه سوف يقتلنى، كيف أحاول المستحيل لأفهمه دون أن أستطيع وكأنه من مادة أخرى لا أستطيع الامتزاج بها.. مادة ثقيلة ترسب فى نفسى ولا تذوب..

كيف نتعاشر منذ سنوات.. ونحن منفصلان.. نتلامس بالجسم فقط.. يجمعنا الإشفاق أحيانًا.. فأتصدق عليه.. وأنا أتأفف.. كأنى أتجرع دواء مرًّا.. ثم أعود فأثور عليه وأتلذذ بحرمانه وتعذيبه.

والآن.. وأنا أحبك.. كيف أشعر أحيانًا.. إنى أحب كل ما فى الدنيا.. وأننى أحبه.. حتى هو أيضًا.. وأزداد قربًا منه ومن أولادى.. وبيتى.. وأشعر بالصلة الوثيقة التى تربطنا كلنا..

حبك رد لى قدرتى على أن أحب وأعطى.. ومنحنى القوة لأغتفر.. وأتحمل..

إن الكراهية شىء فظيع يوقف الدم فى القلب..

وقد عشت طول عمرى أحارب الكراهية بدون سلاح.. أحاربها وأنا أكره أن أحاربها.. وأكره نفسى. كنت تعيسة.. تعيسة جدًّا أتعس من أن أدافع عن حياتى.

ولكنى الآن أحارب الدنيا.. بك.

* * *

فكرت فيك وأنا أنام..

واكتفيت وأنا أغمض عينى بأن أفكر فيك وأعيش فى معنى وجودك..

ولم يخطر ببالى أن أذهب إليك بجسمى.. وأحاول أن أقابلك..

كان شعورى نحوك.. وشعورى نحو نفسى.. أكبر من ذلك الأجر الزهيد الذى تعدنى به هذه المقابلة..

كان ملتقانا فى الخيال.. أرحب بكثير من الغرفة التى التقينا بها فى الواقع.. وكانت مسرتى بك أعمق..

لا.. ليست الفضيلة.. كما تبادر إلى ذهنك.. هى التى منعتنى من أن أسعى إليك.. فأنا لست امرأة فاضلة.. وإنما حبى هو الذى منعنى. إحساسى بأن أى لذة أفوز بها معك بالجسد لن تطفئ عطشى.. ولن تساوى عطشى.. وكل ما ستفعله.. أنها سوف توسع هوة المستحيل التى نقف نحن الاثنان على حافتها.. وتزيد حسرتنا.. ويأسنا.. وعذابنا..

وطمعى في أن أفوز بك كاملا هو الذى قعد بى فى مكانى لا أبرحه ولا أحاول أن أسعى إليك لألقاك.. ولا أرغب فى هذا القسط الزهيد من اللذة..

لم أكن فاضلة..

كنت أريد اللذة كلها.. ولم يكن يشبعنى قسط منها.. لم تكن تشبعني رشفة من حافة كأسك.. أو لمسة من وجودك.. ولهذا آثرت أن أعيش فى معنى وجودك.. مع صورتك وفكرتك..

شكرا لك..

إن حبى لك يحمينى منك ويحمينى لك..

ويحميك أنت أيضًا لى.. كأجمل ما تكون مع زوجتك وولدك..

إن الحب شعور طيب مهما كانت صورته.. ولا يمكن للواقع أن يساومه.. لأن الواقع أضيق منه وأرخص.. ولو أنى أصبحت زوجتك فلن يجد حبى لك كفايته.. وسوف يختنق فى التعامل اليومى المبتذل مع الطباخ والبواب والبقال.

إن الحياة قاسية.. قاسية..

الحياة تدوسنا..تدوس مشاعرنا.. وتدوس أحلامنا.. كل شىء يتحقق فيها تسقط قيمته.. حتى المادة نفسها.. حتى النقود.. تظل حلمًا جميلا حتى نكسبها وننفقها فتسقط قيمتها وتصبح شيئًا عاديا نرميه. ونتخلص منه بالقمار..

أنا أكره الواقع..

وأحبك أنت أكثر من الواقع..

وأكثر من الحياة..

وأحب حبك أكثر منك.. وأكثر من نفسى.. وأصعد به إلى سماوات أجمل من نفسى ومن الدنيا.. سماوات مضيئة فى داخلى.. تمنحنى السعادة.. والسلوى.. والعزاء..

يا حبيبى يا أجمل ما فى دنياى.. أنا أحبك الحب كله.. فلا تحبنى الحب الصغير الذى لا يذكرنى إلا حينما يجوع الجسد وتجوع العينان وتجوع اليدان.

أحبنى الحب الكبير.. الذى ليس له حل.. وليس فيه شبع.. وليست له وسائل ولا أوقات..

الحب المستمر مثل الوجود.. الحاضر فى القلب مثل الخفقان.. المتصل كالأنفاس.. فى النوم واليقظة.

لا تحاول أن تسعى إلى لقاء مسروق لتشبع جسدك وعينيك منى.

إن هذا أجر زهيد لا أقبله.. لكل هذا الحب الذى أحبه لك.

سوف أحزن كثيرًا.. إذا حدث هذا.. سوف أتعذب.

سوف تعذبنى وحدتى من جديد.. وحدتى فى حب لم يجد صداه..

يا حبيبى يا أملى.. لا تخذلنى..

دمت لى.. ولولدك.. ولزوجتك.. وسعدت فى كل أوقاتك..

نانى

قرأت الخطاب مرة.. ومرتين.. وثلاثا.. وأربعا.. ولا أدرى كم مرة بعد هذا كنت أقرؤه.. ثم أضعه إلى جوارى ثم أعود فأقرؤه.

وكأنى أجرى وألهث. فى طريق ليس له آخر.. أسمع صوتها يرن حولى.. ولا أجدها.. مثل الروح تملؤنى ولا أراها..

مثل روحى أنا..

قريبة.. ومستحيلة.

١٠

منذ شهر وأنا أعمل فى ورشة السيارات التى فتحتها.. كل يوم من الصباح إلى المساء.

أشعر بلذة من الانهماك فى عملى.. وأشعر بسعادة لأنه عملى.. أوظف فيه خبرتى وذكائى ومجهودى دون وساطة أحد.. أنا والآلة نقف وجهاً لوجه.. أفكها.. وأضبطها.. وأحكمها.. وقد تطورت العلاقة بيننا إلى صداقة فأنا أصادقها كأنها آدمى له قلب وأحشاء ولحم ودم.

تمنيت اليوم وأنا راكع تحت إحدى العربات لو أنى استطعت أن أفك نفسى وأعيد تركيبها..

تمنيت لو أنها طاوعتنى..

إن الحديد يطاوعنى ولكن قلبى لا يطاوعنى..

أنا أبث عقلى فى الآلة فتتحرك.. وتنتظم.. ولكنى عاجز عن أن أبث عقلى فى عاطفتى.

أشواقى تحرقنى.. صوتها يرن فى أذنى على الدوام.. روحها تحكمنى وتسلبنى الإرادة..

ألتمس الهدوء لنفسى فلا أجده.. كيف أنساها.. كيف أروض نفسى على الحياة بجوارها دون أن أطلبها.. كيف أطفئ ضرام الرغبة.. ولهب الحنين.. وعقلى.. حتى عقلى يشتهيها..

إنها تجد الحصانة منى فى حبها لى.. فما لى أنا لا أجد حصانة منها فى حبى..

حاولت أن أجعل نفسى على هذه القداسة التى أستغنى بها عن لذات الحواس، ولكنى لم أستطع.. غلبتنى بشريتى..

احتقرت نفسى..

كنت أذهب أكثر من مرة إلى التليفون.. ثم أعود أقف أمامه فى خوف وتردد.. أمد يدى ثم أردها.

وأحيانًا كنت أرفع السماعة، وأدير القرص على رقم، أو اثنين ثم لا أجد الشجاعة لأستمر فأضع السماعة من جديد.. وكنت أجد فى إدارة الأرقام لذة لمجرد أنها تنتمى إليها.. وكان اسمها على لسان زوجتى يحركنى.. كأنه كائن حى..

وكانت الموسيقى تعذبنى.. تذكرنى بها.. بتقاطيعها.. بعودها النحيل.. ومشيتها المنسجمة.

فكرت كثيراً فى خطابها الأخير.. وفى كلماتها..

كيف صعدت إلى هذا الصفاء المعنوى.

ما الذى شدها إلى فوق؟

العذاب !!.

المستحيل ؟!!

حاولت الخلاص مثلها فلم أستطع.. كان الواقع يشدنى.. ودنيا الحواس تجذبنى.. وتبدو لى أكثر إقناعا..

كانت بيننا مسافة إنسانية.. هى العذاب الذى تعذبته..

* * *

سافرت إلى الاسكندرية لأغرق همومى فى صخب المصيف.. ولكن الأمر لم يتغير كثيراً.

كان الصخب يطفو على سطح وجودى.. والحوادث تجرى حولى كأنها على شاشة.. معزولة عن نفسى.. لا أتعاطف معها إلا مجاملة.. دون أن أمتزج بشىء فيها بالقلب.

قابلت الأستاذة فاطمة المحامية.. وكانت تمشى وحدها بإعياء.. نحيلة شاحبة تحت عينيها غضون سود..

لم أعرفها فى البداية حتى سلمت على.. فأخذت أدور بعينى فى جسمها باحثاً عن الاستدارة الجميلة التى كنت أراها مرسومة تحت الفستان.. والصدر الرجراج الشهى الذى كان يكظ من فتحة ثوبها..

كانت تبدو كجذع نخلة سقطت ثمارها..

طلبت منى أن أوصلها للفندق لأنها متعبة.. والمغص عاودها. ذهبت معها إلى غرفتها.. وطلبت الطبيب..

تذكرت الليالى التى قضيناها معاً.. وأنا أستمع إلى صوتها المبلل.. تذكرتها كأنما أتذكر سراباً.

– كيف حالك يا حلمى.. يخيل إلى أن سنوات مضت دون أن أراك.

– نعم.. سنوات..

– تبدو مهموماً.. ليست هذه عادتك..

– هموم الحياة..

ولم أشأ أن أخبرها بشىء من هموم الحياة.. ولكنها قالت فى فضول:

– لم أكن أعتقد أن الهموم تستطيع أن تنالك.. كنت تبدو لى دائماً رجلا قويًّا..

– إن الانسان لا يستطيع أن يعيش إلى الأبد قويًّا.. أليس كذلك؟

– ماذا تعنى؟

أنت لا يبدو الآن أنك قوية كما كنت زمان..

– أنا..

واكتست عيناها بالحزن وأردفت فى نبرة كسيرة..

- أنا لم أكن أبداً قوية.. أنا كنت دائماً أقتل نفسى.. طول عمرى وأنا أقتل نفسى.. لم أجد أحداً ينقذنى..

- لقد قتلت كل من حاولوا إنقاذك يا فاطمة.. أنت تعلمين جيداً كيف كانت حياتك..

- نعم أعلم..

وسكتت ثم أردفت فى يأس:

- لا فائدة.. لم يعد هناك فائدة..

- لا داعى لكل هذا اليأس.. إن الإنسان يستطيع أن يبدأ من جديد.

- أتظن هذا؟

- أكيد..

وفى الحق لم أكن متأكداً..

- أشكرك على هذا التشجيع.

وأردفت بعد لحظة:

- ماذا كنت تقول حينما كنت تتذكرنى يا حلمى.. امرأة سيئة.. أليس كذلك.. لا تجاملنى أرجوك.. قل الحقيقة.. إنهم جميعاً كانوا يقولون عنى امرأة سيئة..

ولم أقل لها إنى لم أتذكرها إلا اليوم.. وإنما قلت مجاملا:

- كنت أتذكر اللحظات الجميلة التى عشناها معاً..

شكراً.. يا لك من ولد رقيق جميل.. كم كنت أحبك..

وقلت لها باهتمام:

- قولى الحقيقة يافاطمة.. هل كنت تحبيننى.. لقد فات أوان الكذب.

وأجابت فى ملل:

- يا ولدى الصغير.. أنا لم أحب أحداً.. ولم يحبنى أحد.. لا يوجد رجل فى الدنيا أهل للحب.. أنت تحلم بأشياء لا وجود لها..

- ألا تشعرين بالشقاء وأنت تقولين هذا الكلام..

- دعك من التفلسف.. وقل لى.. هلى أحببت أنت..

- نعم أحببت..

- ومن هى الساذجة التى خدعتها ياترى؟..

- أنا لم أخدع أحداً.

- إذن فقد خدعت نفسك.

وما الذى يدعونى لأن أخدع نفسى.

- لتخلق قصة وهمية تجمل بها حياتك.. أليس هذا هو الحب؟

- إن الحب هو الذى خلقنى.. ولست أنا الذى خلقته.. أنا لا أستطيع أن أخلق حبًّا.

هذه أشعار.. إن الواقع غير هذا..

- وما هو الواقع عندك.

- الحب فى الواقع هو العذر الذى نلجأ إليه لنقضى وقتاً طيباً فى الفراش.. إنه الكلمات الشهية التى نقولها لبعض، لنقبل على الأكل بنفس مفتوحة، ونصنع لأنفسنا جوًّا من الحماس ننسى به الوقت..

- لسنا فى حاجة لأعذار لنجتمع فى الفراش.. إن الغريزة تعتذر بالنيابة عنا.. وهى تتكفل بخلق الحماس اللازم وأكثر..

- لا مانع من أن نطلب مزيداً من البركة..

- إن لقاء الفراش قد يتم على أحسن وجه ولا يحدث الحب.. وقد لا يتم بالمرة.. ويقوم الحب بدونه.

- هذا كلام فارغ.

وشعرت أن كلامى يضايقها.. فسكت.. ودخل الطبيب.. وفحصها.. وكما حدث فى المرة السابقة.. وقف يمصمص شفته فى استغراب.. ويقول إنه لم يجد شيئا ذا بال.. ربما كان احتقاناً أو برداً فى المعدة.. أو أى شىء تافه لا يدعو للقلق.. ولكنها كانت تتلوى من الألم وتطلب حقنة مسكنة.

وفتح حقيبته وأعطاها الحقنة.. واستعادت روحها.. ومرحها. وقالت مداعبة:

- والآن احك لى عن حبك يا صغيرى.. فقد مضى على وقت لم أسمع نكتة ظريفة.

- إن حبى ليس نكتة..

- حسناً أخرج منديلك لتكفكف به الدموع.. واحك لى عن تراجيديا غرامك.

- ألا تستطيعين أن تتكلمى عن شىء دون أن تسخرى منه.. ألا تتصورين أنه من الممكن أن توجد حقيقة.. ولو على سبيل الصدفة.

- أى حقيقة.. إن الدنيا كلها كذب فى كذب.. إنها نكتة.. إنها سخف لا يحتمل.

- ومع هذا فيبدو أنك حريصة على التمتع بهذا السخف والاستزادة منه بكل طريقة ممكنة..

- وهذا سخف آخر منى لم أستطع أن أقاومه..

- ألم يخطر بذهنك أن السخف قد لا يكون فى الدنيا.. وإنما قد يكون فى طريقة حياتك لهذه الدنيا..

- هذا وعظ مسيحى جميل.. يبدو أن صاحبتك راهبة فى الفرنسسكان.

- أنت أسوأ دعاية لآرائك. فمن الواضح أنك لم تستطيعى أن تبلغى بهذه الآراء أى راحة أو سعادة وهذا أنت بعد ثلاثين

سنة وحيدة لا رجل.. ولا زوج.. ولا ولد.. ولا بيت.. ولا حتى صديق.. وحيدة مريضة فى فندق مهجور وفى بلد لا تعرفين فيها أحدًا.. هل هناك فشل أكثر من هذا لك ولآرائك.. هل يمكن أن يعاقب إنسان على آثامه بأكثر من هذا..

ويبدو أن كلامى كان قاسيا لأنها سكتت.. وشحب وجهها.. وظهر عليها الحقد والمرارة واليأس..

وظلت تصارع ضعفها لحظة ثم انهارت فجأة.. تبكى.. وتشد شعرها..

- حلمى.. حرام عليك.. لا تقتلنى.. لا تقتلنى..
أنا مسكينة.. مسكينة.. أنا فى حاجة إلى العطف والحنان..

- لن تجدى العطف والحنان إلا إذا أعطيت العطف والحنان.

- أنا غير قادرة على أن أعطى أحداً شيئاً.. أنا لا أملك عطفاً.. ولا أملك حناناً.. أنا مسكينة.. مسكينة..

وظلت تردد كلمة.. مسكينة.. مسكينة.. مدة طويلة حتى استراحت وهدأت، فمسحت دموعها ثم قالت فى صوت ضعيف هامس:

- حلمى أنت لا تعرف عنى شيئاً..

- أنا أعرف ما يكفينى..

- أبداً..

وسكتت لحظة.. ثم عاودت تبكى فى سكون.. وقالت فى وجل وتردد..

- سوف أقول لك حقيقة لا تعلمها.. هل تعرف هذه النوبات من المغص التى تنتابنى؟

وسكتت.. وترددت ثم قالت بصوت مضطرب..

- إنى أتحايل بها لأحصل على حقن المورفين.. أنا أدمن المورفين من زمن طويل..

وكانت هذه الحقيقة مفاجأة بالنسبة لى تماماً..

وأحسست بالإشفاق الشديد نحوها..

- يجب أن تدخلى مستشفى لتعالجى نفسك من هذا الإدمان المدمر..

- لا فائدة.. سوف أعالج الإدمان.. ولكن كيف أعالج حياتى.. كيف أحتملها بدون أن أتجرع السم كل يوم.. كيف أعيش بلا حب بلا هدف بلا إيمان.. بلا معنى.. بلا إله.. كيف أحتمل حياة كلها عبث فى عبث؟

لماذا لا تتكلم؟

- ماذا أستطيع أن أقول لامرأة لا تشعر أن فى عالمها إلها.. كيف أدخل لها النور.. وقد أغلقت كل النوافذ..

أنا لا أريد إلها.. أنا أريد رجلا يحبنى وأحبه رجلا يحبنى بكل قلبه..

وعادت تبكي..

* * *

طول الطريق فى أثناء عودتى من الإسكندرية كنت أفكر فى نانى.. عصفور جميل سجين.. بين جدران أربعة من المستحيل. لا يملك حريته ولا خبزه ولا جسمه.. يغنى.. لأن لمسة من الحب لمست روحه ففاضت بالحنان والجمال.. وأحبت كل شيء.. حتى الألم وجدت له مبرراً وعذراً..

وفاطمة التى تمرح طليقة كما تشتهى تشرب السم لتموت ببطء يائسة وحيدة تعيسة.

بدون حب..

يا ويلنا بدون حب..

وأحسست بالشوق.. بالشوق إليها إلى الصعود حيث توجد حبيبتى فى ملكوتها وجمالها..

وكان الشوق يسحقنى يذيبنى..

وكان أول شيء فعلته حينما وصلت أنى جريت نحو التليفون وأغلقت الباب.. كطفل يريد أن يأكل قطعة من الحلوى وحده..

ورفعت السماعة وأدرت القرص على أرقامها الخمسة.. ثم

جبنت فوضعتها وأنا أرتجف.. ثم عدت أحملق فى الآلة السوداء.. والمشاعر تتخطفنى.. ولبثت فترة.. ثم عدت فأدرت الرقم.. وسمعت صوتها رائقا.. صافيًا.. حلواً..

- نانى.. أريد أن أراك..

ولبثت صامتة لحظة.. ثم أجابت فى صوت متهدج يذوب حبًّا:

- يا حبيبى.. إنى أراك.. أراك أنت وحدك.. ولا أرى شيئا سواك.. أرى بك الدنيا كلها.. أراها فى ضوئك..

- نانى.. أنا أريدك..

- يا حبيبى لا تخذلنى..

- إنى أحبك.. أحبك..

- إن حبك جعلنى ملكة.. فلا تدعه يجعلنى جارية..

- أنا أحبك..

- أنا أعبدك.. أنت روحى.. إرادتى.. أملى..

كن إرادتى الكبيرة ولا تكن إرادتى الصغيرة..

- أنت لا تحبيننى كما أحبك..

- بل أحبك أكثر مما تحبنى..

وسكتت لتلهث.. وتخطف أنفاسها.. كأنها تجرى شوطًا طويلا..

وأحسست بلهثاتها من بعيد.. ومن قريب.. من قريب جدًّا.. من روحي..

وأحسست أنى صغير جدًّا إلى جوارها.. ولم أعرف كيف أعتذر.

- ساعديني لأحبك كما تحبينني يا ملكتي.. لن أنساك. أبدا.. سوف أكون إرادتك.. إرادتك الكبرى.. وأجمل أحلامك.

- ياحبى.. يا حبى.. ياحبى.

* * *

وظللت برهة ساكناً. لا أحس بوجودى فى الدنيا.. ثم بدأت أفيق..

وذهبت إلى عملى.. وظللت أشتغل إلى وقت متأخر من الليل.. وعدت مرهقاً لأتمدد فى فراشى.. مفتوح العينين فى الظلام.. أتذكرها وأتذكر كلماتها.. كلمة.. كلمة.. وألتمس منها القداسة.. والنجاة .. وأتوسل بها إلى الجزء الأسمى من وجودى.. وأصعد إليها.. على درجات المستحيل درجة.. درجة.. يأخذ حبها بيدى.. إلى حيث أجمل لذاتنا..

صدر للمؤلف

١ - الله والإنسان
٢ - أكل عيش
٣ - عنبر ٧
٤ - شلة الأنس
٥ - رائحة الدم
٦ - إبليس
٧ - لغز الموت
٨ - لغز الحياة
٩ - الأحلام
١٠- أينشتين والنسبية
١١- فى الحب والحياة
١٢- يوميات نص الليل
١٣- المستحيل
١٤- الأفيون .. (سيناريو)
١٥- العنكبوت
١٦- الخروج من التابوت
١٧- رجل تحت الصفر
١٨- الإسكندر الأكبر
١٩- الزلزال
٢٠- الإنسان والظل
٢١- غوما
٢٢- الشيطان يسكن فى بيتنا
٢٣- الغابة
٢٤- مغامرة فى الصحراء
٢٥- المدينة (أو حكاية مسافر)
٢٦- اعترفوا لى
٢٧- ٥٥ مشكلة حب
٢٨- اعترافات عشاق
٢٩- القرآن محاولة لفهم عصرى
٣٠- رحلتى من الشك إلى الإيمان
٣١- الطريق إلى الكعبة
٣٢- الله
٣٣- التوراة
٣٤- الشيطان يحكم
٣٥- رأيت الله
٣٦- الروح والجسد
٣٧- حوار مع صديقى الملحد
٣٨- الماركسية والإسلام
٣٩- محمد
٤٠- السر الأعظم
٤١- الطوفان
٤٢- الأفيون .. (رواية)
٤٣- الوجود والعدم
٤٤- من أسرار القرآن

* مجموعة المؤلفات الكاملة *

قصص مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
روايات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
مسرحيات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢
رحلات مصطفى محمود	صدرت فى بيروت عام ١٩٧٢

حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ٧٥٢١
الترقيم الدولى	977 - 02 - 4196 - 2	ISBN

١ / ٩٣ / ٨٦
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر بالعلم.. وطرق أبوابا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدا بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.